عبد الرحمن شلقم

الحروف



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

خالد علي بورقيبة

الحروف

خالد علي بورقيج

عبد الرحمن شلقم

عمر يوسف الدرنى

الحروف

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الطبعة الاولى

1392 و. ر- 1983 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



تصميم الغلاف: محمّد رضـا

1 ـ الحروف

★ أيها الحرف المعــــذب
أينما تــذهــب أذهــب

هذا التلازم والتــوحــد بين الحرف والشــاعــر، أو الأديب، هو خيط الحياة الذي يشحن به الشاعر كلماته فيغشى بها دخيلــة الوجــود؛ وبــه يتمكــن مــن صـــب الأحاسيس والأحلام الإنسانية الخالدة في أوعية الحياة. وهذا التلازم الذي عبر عنه الشاعر العربي الحديث هو ذات القدرة التي تمكن بها هــوميروس مــن أن يقتنــص أعقد وأدق المشاعر والنوازع الإنسانية وأن يصوغها في رائعتيه (الأوديسة) و(الألياذة).

في الأوديسة زاوج الشاعر الاغــريقــي هــوميروس الإنســـان والآلهة وأودع في (أوذيس) صفـــات الآلهة والبشر. وإن ذلك الخالق المخلوق الذي تتشابــك كــل النوازع في داخله وتتوحــد القــوة والضعــف فيــه يملأه التردد وتدفعه الشجاعة ولا يخونه الذكاء، وهو الذي يحمل صفات المواطن الاغريقي في تلك الرحلات التي دامت

عشر سنوات محفوفة بالمخاطر والمشاق بعد عـودتـه الى بلاده اثر سقوط طروادة. في هذه الملحمة يدور الصراع في اتجاهات شتى بين الفرد وذاته وبينه وبين أبناء قومه وبين هؤلاء جميعاً وبين أعدائهم.

تقول الملحمة الاسطـورة [بعـد أن تـزوج أوذيس بنلـوب مبـاشرة دعـي الى حـرب طروادة، ولم يكـن متحمساً للاشتراك في الحرب، فتظاهر بـالجنـون وبـذر الأرض ملحاً بدل الحب وقرن ثوراً الى أتان ولكن هذه الحيلة كُشفت. وبعد نشوب الحرب بزّ أوذيس أقرانه فكان حكيم الاغريق ومشيرهم حتى أن سقوط طروادة يرجع الفضل فيه الى ذكاء أوذيس أكثر مما يرجع الى شجاعة أخيل أو شجاعة الاغريق، إذ إن أوذيس هو الذي دبر حيلـة الحصـان الخشبي الذي دخـل طـروادة وأصبحت هذه الحيلة مثلاً يتردد إلى يومنا هذا].

في هذه الملحمة الاوديسة صور هوميروس قنـوات الظلم ومساربه التي يـدخـل منهـا إلى المجتمـع بـل إلى البيـوت، فـأوذيس الذي ذهـب مقـاتلاً مـن أجـل الاغريقيين في طروادة استغلوا غيابـه وبـذّروا أمـواله

وحاولوا أن يكرهوا زوجته بنلوب على الزواج بأحدهم مستغلين صغر سن ابنه تليماخ . وتسرد الملحمة المشاق والخطط والحيل التي قام بها أوذيس بمساعدة أصدقائه للقضاء على أعدائه الذين استولوا على ثروته وخططوا للاستيلاء على زوجته .

فالذين قعدوا عن الحرب حاولوا أن يستولوا على كل مقدرات المحارب وأرادوا أن يصادروا منه مقومات السلطة فأوذيس هو ابن ليرت وملك ايتاكه .

هوميروس لم ينحز للملك في الأوديسة، ولكنه شرح دخائل كل الاطراف ورسم الخيوط والخطوط التي تحرك كلاًّ منهم وحدد المقدرات التي يتصارعون حولها . . . وهكذا كانت الأوديسة خليّة ملحمية إنسانية متشابكة بالأحداث والأساطير والآلهة والنوازع تظهر مكامن الاختلال ومحركاته .

وبدون الايغال في تفسير مضمون الأسطورة في هذه الملحمة فإن هوميروس استثمر التراث الاغريقي بما فيه من آلهة وأساطير بل وخرافات لتصوير أوجاع النفس البشرية وحلمها بعالم هادىء جميل بدون حرب، بدون

مشقات ودون تطاحن. لقد سخّر هوميروس ملحمته لتسجيل أحداث تاريخه من منظور أسطوري، راسماً بذلك علامة استفهام كبيرة ولكن في صلب خطوط علامات الاستفهام بث هوميروس الاجابات على ذلك السؤال الكبير.

إن الذي يملك أن يفعل كل شيء تجاه الآخرين يلاقي الضعف والخطر في ذاته.

وإن الحقد يبقى دفيناً في النفوس ضد أولئك الذين يزحزحون كل شيء في البلاد الى مصلحتهم الخاصة... ومن هنا يبدأ الصراع... الصراع في الداخل: في الذات وداخل المجتمع ولا يكون وجود الذات وتحقيقها الا باستئصال مسببات الصراع وزرع بذور عالم حقيقي جميل يُروى بماء الحرية.

2 ـ جبران في غابة التاريخ

الكاتب شاهد على الحاضر وشريك فيه ومساهم في قيادته ودفعه وهو قارىء للماضي، للتاريخ، والفن والاحداث بعين معتبرة حادة تستل الدلالات ويصوغها الكاتب عبارة تمثل أرجاماً على طريق المستقبل.

لنقف مع جبران خليل جبران أمام الخارطة المكثفة العميقة التي يرسمها لرحلة الانسان عبر آلاف السنين. يقول جبران خليل جبران في مقالة بعنوان (العبودية) في كتابه (العواصف)... [وقد اتبعت الانسان من بابل الى باريس ومن نينوى الى نيويورك، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون... دخلت القصور والمعابد والهياكل ووقفت حِذاء العروش والمذابح والمنابر فرأيت العامل عبداً للتاجر والتاجر عبداً للجندي والجندي عبداً للحاكم والحاكم عبداً للملك

والملك عبداً للكاهن والكاهن عبداً للصنم والصنم تراباً جبلته الشياطين ولضبته فوق رابية من جماجم الأموات] . ويضيف جبران في تصوير عبودية الانسان عبر التاريخ : [دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء والضعفاء ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب وفي المآوي المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن والصبيان يتلقون الخضوع مع حروف الهجاء والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع والنساء يهجعن على أسرة الطاعة والامتثال] .

في هذه اللوحة المكتوبة بحبر يحترق بالتاريخ والمثل رسمها جبران للانسان عبر القرون والسنين ووضع فوق كل وكر من أوكار العبودية سهماً له رأس وفم ينطق ويصرخ من فرط الضيم وفي هذه السلسلة من التبعية التي تجعل البشر مغلولين الى حبل شديد . . . كل مُستعبِد وكل مُستَعبَد .

يريد جبران أن يقول أن من يملك قوتي يستعبدني وأنا عبد لمن هو قادر على ردعي وقمعي والذين

يستعبدونني هم عبيد لذلك الذي يستمدون منه القوة التي يستعبدونني بها . . ومن يقبض برأس الخيط إنه الشيطـان كما يقول جبران إنه فاوست الذي تحركه نزعة السوء والرذيلة ، انها الشهوة المجنونة التي تحرك كل الأشياء في عقيدة فاوست ذلك الشخص الذي باع نفسه للشيطان .

فالعبودية تلغي انسانية الاطـراف كلهـا المستعبِـدة والمستعبَدة وتاريخ البشرية ومسيرتها كما يراها جبران هما مظاهر متباينة لحال واحد ، الخاضع لذات القانون غير العادل وهو قانون العبودية التي ترتكز على قاعدتين : المال ـ والسلطة . . والشخصيات التي استعرضها جبران كلها تمتلك أحد العاملين اللذين يشّعان قوة تمكن مالكها من استعباد غيره .

لقد كان جبران خليل جبران الرسام المتقن لأوجاع الانسانية بين أحرف كلماته تسكن أنـات البشريـة وفي سطوره الأدبية البسيطة المفعمة بـالتمـرد والضيـق مـن التسلط والجبروت تندفع رائحة الثورة . يقول جبران في مقالة بعنوان (الجبابرة) . . . [ليس من يكتـب بـالحبر كمـن يكتب بدم القلب ، وليس السكوت الذي يحدثه

الملل كالسكوت الذي يوجده الألم . وأنا سكتت لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وأنينهم الى عويل الهاوية وضجّتها ومن الحكمة أن يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً] .

لماذا يسكت الضعيف، في عالم الجبابرة؟ لا يسكت مللاً كما يقول جبران ولكن عليه أن يكتب بدم القلب وليس بدم القلم لأن الجبابرة لن ينسحبوا من مواقعهم الا بالقوة... قوة دم القلب... ولكن كيف ومتى... يجيب جبران على ذلك في مقالته الأولى بعنوان (العبودية) بقوله... [ولما تعبت من ملاحقة الاجيال ومللت النظر الى مواكب الشعوب والأمم جلست وحيداً في وادي الأشباح حيث تختبىء خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية، هناك رأيت شبحاً هزيلا يسير منفرداً محدقاً بوجه الشمس، فسألته من أنت وما اسمك؟ قال اسمي « الحرية » .] .

3 ـ [مأساة الملك لير
أو مأساة الإنسان]

الابداعات الانسانية عبر التاريخ هي الملف الشخصي للانسانية في تأزمها وحلمها وهي تصوير نفسي وروحي ابداعي لطموح الانسانية . . . ولكن كيف نقرأ نحن ـ اليوم ـ تلك الإبداعات؟ بأي عيون وأي رؤية وماذا تعني لنا ؟ .

ان محركات الانسان ودوافعه للأفعال ثابتة ثبات وجود الكون ومحركات التاريخ هي هي . . . فالعامل الاجتماعي هو قوة الحركة وهو المولد المستمر للحركة الانسانية في ارتفاعها وتدهورها . والدوافع الاخرى هي مولدات ثانوية تابعة للعامل الاجتماعي ومحكومة به . وإذا كان ـ الكاتب الانجليزي الكبير وليم شكسبير ـ قد تمكن بعبقريته أن يصبّ النوازع والدوافع والمركبات الإنسانية في مسرحيات عظيمة خالدة فإنه استطاع بقوة اللغة والرؤية الفنية والنفسية العميقة أن يمضي إلى دخائل

النفوس والعلاقات الاجتماعية .

في مـأسـاة الملـك لير يجعـل شكسبير المكـان هـو اللامكان وكل مكان والمشهد هو الأرض عنصر التراب في كيان الطبيعة، وقد دفقت عليها قوى النار والهواء والماء والانسان. . . هذا العالم الصغير المكون من تراب يحتوي العالم الكبير الضاج العاتي ويعكس هذه الضجة وهذا العتو وقد تفجرت فيه عناصره الأولية صريرة هوجاء اذا فقدت انسحاقها اختل الكون واختلت الدولة واختل المجتمع وتهاوت في النهاية الانسانية نفسها واذا الانسان في الفلاة فريسة للطيور . ويقول جبرا ابراهيم جبرا في مقدمة تـرجمتـه لمأسـاة الملـك لير « لقـد ملأ شكسبير رؤيته برموز الرعب، إنه يذكـر أربعـة وستين حيواناً مشبهاً حياة الانسان بحياة الضواري والانسان في هذه الفلاة البشرية التي هي امتـداد لكيـانـه الجسـدي يضرب ويُضرب ويخترق ويلسع ويُجلد ويُمط ويُسمط ويحطم في النهاية على المخلعة » .

هكذا صور شكسبير مأساة الملك لير مصوراً من خلالها مأساة الانسان في هذا الوجود أنه الكائن المقهور

المطحون، فكأنما كتبت هذه المسرحية صباح هذا اليوم وشرع في تمثيلها مباشرة فوق كل مكان من الكرة الأرضية وكأن القارات الخمس هي خشبة المسرح الذي تدور فوقه أحداث المسرحية.

بل أن الرعب الذي يواجه انسان اليوم لا يقاس بذلك الذي واجهه انسان القرن والعصر الذي كتبت فيه المسرحية، فالظلم أصبح مقنناً ومدعوماً بمؤسسات تحميه وقوة ضاربة تسنده ووقر في القلوب أن تلك الشريعة الظالمة هي جزء من القدر الذي لا فكاك منه ولا حيلة دونه.

فالملك لير هو الانسان الذي يواجه الحقيقة بصدمها ولكنها توجه اليه صدمة أعتى وأقوى يضيق وتتعرى كل العلاقات أمامه يكتشف البشاعة ويكتشف أيضاً العلاقات الاجتماعية والقوانين غير العادلة التي تكرس تلك البشاعة.

الملك لير يخاطب ادغار الذي يظهر في زي شحاذ مجنون؛ يقول لير... «لخير لك أن تكون في القبر من أن تتحمل قسوة السماوات بجلدك المعرى، أهذا هو

الإنسان كله ؟ . . . تأملوه جيداً لست مديناً للدودة بحرير ، للثور بجلد ، للخروف بصوف ، للقط بوبر . . نحن الثلاثة هنا ملفقون وأنت الشيء الحقيقي فما الانسان بلا رياش إلا هذا الحيوان المشطور الاجرد المسكين الذي هو أنت . . . عني ، عني أيتها الاستعارات » .

يفسر ابراهيم جبرا هذا المشهد للملك لير وهو يمزق ثيابه المستعارة لأنه يريد أن يكون أمام ذاته الحقيقية يفسره بأنه في عالم الشهوة والعجرفة وغلاظة القلب ، عالم الطموح والسلطة حيث النفاق والشقاق والقتل والانتحار ينحاز لير الى البؤساء والفقراء المستضعفين . يقول لير هؤلاء هم الحقيقيون هم ذوو الفضيلة ، ذوو القلوب السليمة ، ذوو الولاء والرأفة وخطاياهم ما عادت خطايا وهو يناصر أهل الثياب المهلهلة على الحكام ذوي « عباءات الفراء » .

يقول لير :

« أنظر إلى هذا القاضي وهو يعنف ذلك اللص التافه ليتبادلا المكان واحزر يا شاطر أيهما القاضي وأيهما اللص ؟ أرأيت كلب فلاح ينبح على شحاذ ؟ » .

ويرد غلوستر : نعم سيدي

ويخاطبه لير قائلا :

« والمخلوق يركض هرباً من الكلب ؟ ؟ لك في ذلك أن ترى مثل السلطة العظيم ـ الكلب في الوظيفة مطاع ، أيها الشرطي النذل ارفع يدك الدامية ، لم تجلد تلك البغي ؟ عرّظهرك أنت ، فأنت ملتهب الشبق لتفعل معها ما أنت تجلدها من أجله . . . المرابي يشنق الغشاشين . . ويستطرد الملك لير . . . ليس ثمة من مذنب أبداً ، أقول أبداً ولأشهدن على ذلك » .

في هذه المسرحية الملـك يعني الحقيقـة العـامـة التي تواجه كل الأشياء فتراها عاريـة ، تـرى بعين الحقيقـة العظمى أن الفقراء والضعفاء والمقهـوريـن هـم الذيـن يحملون في داخلهم كل الأشياء الجميلة والرائعة انهم لم يشوهوا بداء الـزيـف . . . فلير يعني الحقيقـة وتلـك الصرخة التـاريخيـة التي جـاءت على لسـان لير لم تكـن باختيار الملك ولكن الحرف شاء .



4 ـ البحث عن شيء

أتحدث عن شجرة . . . أو زهرة . . . عن قط أو أسد أو عصفور ، وأكتب عـن البحـر والسماء والكـوارث ، وأقرأ عن الحرية والتقدم والحقوق والواجبات فما أقصد وما أريد ؟

الانسان يبحث دائماً عن شيء سمّهِ الحقيقة سمهِ الوجود سمّه ما شئت ولكـن في كـل الأحيـان هنـاك قوانين تـرسم خطـوط العلاقـات بين الاطراف ، تلـك الخطوط تشكل جانباً مما نبحث عنه وهذه تختلف من عصر الى آخر ومن مجتمع لآخر ومـن فرد الى فرد أيضاً .

عبدالله بن المقفع في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة سرد حوارات طويلة بين الحيوانـات وسـاق مـن الوقـائـع والأحداث التاريخية والحكم والوصايا ، ما كان سائداً من ثقافة ذلك العصر ،وأجمل ما في الكتاب هو تصوير

طبيعية العلاقة بين الفكر والقوة، أو الفكر والسلطة فدبشليم كان ملك ملوك الهند نصبوه بعدما اسقطوا الملك الذي ولآه الاسكندر على الهند ، أما بيدبا الفيلسوف فكان من البراهمة وهو حكيم يعرف الفضيلة ويرجع اليه .

ولما رأى بيدبا الظلم والطغيان والجور الذي يمارسه الملك على الرعية قرر أن يقف في وجه جور الملك وأن يعمل على وضعه على جادة الحق والعدالة . . . ودخل الفيلسوف بيدبا على دبشليم الملك فقال بيدبا :

أيها الملك ، اني وجدت الأمور التي يختص بها الإنسان من بين الحيوان أربعة وفيها جماع كل ما في العالم ، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل . فالعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة وأما الحلم والصبر والرفق والوقار داخلة في باب العقل وأما الحياء والكرم والضيافة والأنفة داخلة في باب العفة وأما الصدق والمراقبة والاحسان وحسن الخلق داخلة في باب العدل .

الحكمة والعفة والعقل والعدل . . . هي الأركان الأربعة كما عرضها بيدبا للانسان القويم وأن نقائضها

رذائل وهي تقيد الإنسان إلى الحالة الحيوانية ، والفيلسوف وهو يسرد الدروس للملك على لسان الحيوانات وعن سلوكها كان يرسم القوانين الطبيعية للعلاقات بين أطراف الحياة .

لقد اصطبغت روايات بيدبا عن الحيوانات بالقدرية والحكم والتأملات البرهمية الهندية الا أننا بقراءة جادة عميقة نكتشف أن بيدبا وهو يروي ما يروي على ألسنة الحيوانات كان يكشف القوانين الطبيعية التي متى سادت تحققت الأركان الأربعة لتحقيق انسانية الانسان وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل .

وقد فَصَّلها بيدبا عندما قال أن الحكمة تعني العلم والأدب والروية فالانسان العالم العارف المتبحر في شؤون المعرفة والأدب سيكون قادراً على الرؤية السليمة العلمية وهذه الرؤية تقود الانسان الى العفة ويسمو بروحه وذاته فوق صغائر المادة وحضيضها وبذلك يستمد قوة العقل قوة الرؤية الصحيحة حوله واستقراء ما هو قادم . في كليلة ودمنة نستشف القواعد الطبيعية ونستشف أيضاً أن الفكر هو دائماً تعبير عن روح الحقيقة وهو المداد

المقدس الذي يرسم خرائط الحياة الحقيقية وهو القوة المقدسة القادرة على اقتحام أوكار الجور والعسف، لكن قدر الفكر والمفكر أنه يتعامل مع كائنات متحركة الانتماءات والدوافع والرغبات، ولهذا فإن الفكر هو ذلك الكائن الذي لا يتوقف عن المواجهة والصدام في مواجهة كل الرغبات المعانية المعقدة التي تجعل بني البشر في عملية تقلبات دائمة، وهنا يكمن الامتحان الأكبر، فبيدبا ذلك الفيسلوف الهندي في كليلة ودمنة يكشف الواقع الظالم ويثور عليه ويحرض تلامذته للثورة عليه، لكنه بحكم الموروثات والروح القدرية التي تسكن المجتمع الهندي يصبح عملياً أحد الخاضعين للقوانين والقواعد التي يثور عليها، وتلك حالة ضعف تذكرنا بقول الشاعر العربي دريد بن الصمّة:

نصحت لعارض وأصحاب عارض
ورهط بني السوداء والقوم شهّدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشدَ الا ضحى الغد

فلما عصوني ك . ، سنهم وقد أرى
غوايتهم أو أنني غير مهتدي
وهل أنا الا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

ذلك هو الهم الأزلي الأبدي الذي عمله الفكر، إنه الضوء التاريخي الذي يخترق جدران الواقع والضرورة لينفذ الى مكنونات الحقيقة والمستقبل ولكن أكثر الناس لا يعلمون .



5 ـ أين حقي ؟

الحروف حرائق يداهم لظاها ركام الظلام فاذا هو رماد، تحرق الظلام الاجتماعي والسياسي والنفسي وتشعل في الذات قوى عاتية لا يقاومها صخر الواقع وترابه . كم من مقاتل واجه الدنيا بجيش من الحروف المجنزرة، ألم يقل نابليون الثالث «إنني قادر على مهاجمة جيوش الدنيا ولكنني لا أستطيع تحريك قوتي في مواجهة عدد من الكلمات» .

في كل المعارك الصامتة التي لا نراها والتي تدور رحاها فوق هذا السطح أو ذاك من الكرة الأرضية في كل المعارك يكون بطلها المستتر الذي يطلق نيرانه في كل الاتجاهات بطلها الحرف برأسه الحاد .

في قصيدة مملوءة بروح التساؤل الثوري قام الشاعر محمد صالح بحر العلوم بكشف البنية الاجتماعية الظالمة وأدخل حروفه قنابل بين لبنات الهرم الاستغلالي الذي

يطحن في داخله الفقراء والاطفال والنساء وكل الشرائح المغلوبة التي يمتص دمها مجتمع الطغيان ويتركها نفايات لا تجد من الأسمال ما تتقي به البرد ولا تجد من الفتات ما تملأ به بطونها الخالية الجائعة .

ويصرخ بحر العلوم باسم الملايين في وجه السلطان الذي يجلس فوق عرشه مدافعاً عن الظلم حامياً للطغاة الذين يقهرون كل الشرائح الاجتماعية متسترين بالدين ومتخذين منه غطاء يخفون تحته ممارساتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ،والتي تتناقض أساساً مع قواعد العدل التي أقامها الدين . . . فالدين هو الحق والحقيقة وهو قوة للحرية وللمساواة وليس تعاويذ يقرؤها الطغاة على ضحاياهم ليزدادوا ركوعاً وخنوعاً . يقول بحر العلوم :

جئت استفسر عقلي وهل يدرك عقلي
محن الكون التي استعصت على العالم قبلي
ألأجل الكون أسعى أم يسعى لأجلي
واذا كان لكل فيه حقّ أين حقي ؟
فأجاب العقل في لهجة شكاك محاذر
أنا في رأسك محفوف بأفواج المخاطر

تطلب العدل وقانـون بني جنسـك جـائـر
إن يكـن عـدلا فسلـه عـن لسـاني
ـ أين حقي ؟

وفتـاة لم تجد غير غبـار الريـح سترا
تخدم الحيَّ ولا تملـك مـن دنيـاهـا شبرا
تتمنى الموت كـي تملـك بعـد الموت قبرا
واذا الحفـار فـوق القبر يصرخ
ـ أين حقي ؟

مـا لهذي وسـواهـا غير ميـدان الدعـارة
لتبيـع العـرض في أبخس أثمان التجـارة
واذا بـالـديـن يـرميها ثمانين حجـارة
واذا القـاضي هـو الزاني ويصرخ
ـ أين حقي ؟

كم فتى في الكوخ أجدى من أمير في القصور
قوته اليومـي لا يـزداد عـن قـرص صغير
ثلثـاه مـن تـراب والبقـايـا مـن شعير
واذا بـالكـوخ كلـب الشيـخ يعـوي
ـ أين حقي ؟

أنـت فسرت كتـاب الله تفسير انقيـادي
واتخذت الديـن أحبـولـة لـف واصطيـاد
وتلبسـت بثـوب لم يفصـل بسـداد
فـاذا بـالثـوب ينشق احتجـاجـاً

ـ أين حقي

في هذه القصيدة فجر الشاعر تساؤلاً شـاملاً حـول هوية تلك البنية الظالمة وكشف قوانينها وعرى أطرافها ووضعهـم في قفـص الاتهام الاجتماعـي والديني وحـدّد حيثيات ادانتهم وخلع على الظالمين صفتهم الحقيقية ـ فكل الطغاة دمى .

وقد هزت هذه القصيدة النظام الملكي الذي كان يحكم العراق قبل الثورة فقد كانت أخطر منشور يدينه مما أربك أطراف الحكم ولم تجد كلمة ترد بها على الادانة الشاملة التي وجهها الشاعر اليها .

لقد كانت جولة عاتية خاضها الحرف بقوة وحقـق فيها نصراً مبيناً ضدّ الطغاة وأعوانهم .

6 ـ إمرأة من حروف

هذه روحك طافحة بخمرة الحياة، خمرة تلذ لمن يجيد فهم أبجدية روحك... شعرك الفاحم الوديع تتدفق منه روح أندلسية تحمل هوية ما قبل عصور الهرولة العربية نحو شواطىء الشمال الافريقي، ينساب على «جبهة» قدت من تاريخ الساحل الافريقي الفينيقي الروماني الاغريقي، وهذا أنفك ينتصب في رقة الأنيس وتيقظ الحارس لشفتيك، وهكذا تكتمل صفحة وجهك المتدور لتكون «الفهرس» لمجلدات شخصيتك.

يدك على خدك، هي الاستواء على عرشك الذاتي والعام وكأنك ترقبين غابة الحزن، تصنفين أشجارها، أنفاسك تمدها بأوكسجين النمو، غابة الحزن في الخارج هي المولود البكر «لبذرة» الحزن في الداخل داخل داخلك ـ تتحول غابة الخارج الى «الدغل» الاجتماعي

الذي يتنكر للبذرة. وهذه شلالات الصدق في الداخل تتحول لمجرد ملامسة سطح الأرض الى « جبل الثلج السام »... فهذا نصفه الاسفل مغروس في قاع المحيط الاجتماعي الآسن، والنصف الأعلى شاهد جرح... جرح شاخص... في القاع يسكن تاريخ وعهود وفي قاع الجرح الأعلى تتكاثر فيروسات الضمير وتتوالد وينبت فيها « الحلم ».

هذا الحلم السحري، الوديع، المتمرد، الهائج، الرافض، الودود، ينساب فوق وجهك المكدود المتورد عنوة، يستل مكنونات الذات ويكتب خطوطاً بالحبر السري.

يكتب حيثيات الحكم على واقعة « الرشوة » الاجتماعية التي يتبادلها الدغل الاجتماعي وجبل الثلج السام...

من يشتري الحلم، بالسعادة...
ويقايض الحزن، بحب المسحوقين...
ويبيح دمه من أجل بسمة صديق...

ها أنت يا صديقتي تلملمين الحقد، من عيون

النفوس المشـوهـة بفعـل جبـل الثلـج السـام، وتقلبين « كومة » النفاق، وتحرثين أرض الغـدد التي تـورمـت، تقيحت، وتعاودين وتلقين « بالبذرة الثانية » في انتظار المولود الثاني . . . بعدما رفعت يديك بالدعاء تسامحاً مع المولود البكر . . .

ها أنت يا صديقتي، تقرئين فاتحة النفوس ولكن عبـق « فـاوسـت » أو روح الشيطـان تصـوري عبـــق الشيطان؟ يرتفع، يغشى شعرك الفاحم وتعود الرائحة الاندلسية الى خط الدفاع الثاني . . .

أوّاه يا صديقتي . . .

كيف تحول أنفك الى رادار لضمير الوطـن، يـرى بحاسته التي صممت للشم؟ ويسكنه الحزن ويتربع الألم فيه وتتداعى كل الأشياء الى الداخل . . .

ما كان كفك يدي القدر، تمسحين به جبين المجتمع المنهوك الذي تسربل بعرق أحمر وأزرق، وما كـانـت نظراتك خطوة براق فتطيريـن بـالكـائنـات المتعـددة الشخصيات في رحلة اسراء ومعراج الى سدرة المنتهى .

هذا الاطلس الانساني، وجهك يا صديقتي تضاريس

ضمير فيـه تلال الحب ووهـاد السعـادة ووديـان الحزن الحي . . .

ارفعي يدك ،أصابعك سورة مكيّة ، ترسم اللعنة فوق صدور الأوثان وهذا خنصرك النحيف يشير الى أهل الكهف بأن يخرجوا وينتظروا نتاج البذرة .

اقتربي مني ، فمن عينيك تفوح دنيا الفهم والتعجب والتشخيص .اقتربي ، فأنت القارعة التي توقظ في الذات كل الذوات .اقتربي كي أقرأ « شفرة » الحياة بين استدارة خدك وامتداد رقبتك .

ابتسمي ، فهذه نواجذك الرقيقة لوحة حب صادق ، حب للحياة ، للآخرين .

اني أعلم أنك تكدسين حُطام الاحـزان في داخلـك وتعتمل ليبـدأ مـوسم الدفـق ولكـن مـن يـرى هلال الموسم ؟ .

قدر قلبك أن يكون زرقاء اليمامة يكبر فيه ما دقّ من السياط ويرى أرتال النمل التي تجتاح ضميرنا عند الهجيـع . انه قدر مفزع فأنت ترين هلال موسم الدفق قبل كل غسق وتحركين قدمك في الخطوة الاولى وفجأة تتحول

القدم الى صلصال كالفخار ويعسعس الدهر الاندلسي وتنهضين في فزع . . . انه قدر رهيـب أيـن منـه قـدر سيزيف المأساوي . لكن فزعك جميل ، ذلك الذي ينبت بين منطقتي ـ الحلم ـ والحقيقة تلك هي جدلية الفعل الكامل .

هكذا ينتصب جسدك النحيل علامة استفهام ساخرة عند نهاية كل الأسئلة الاجتماعية والنفسية ، وتكونين أنت الجواب .

وهذا وجهك منقبض ، هو صفحات المشهد الأول من مسرحية ساخرة تسلط أضواءها على مسرح الشوارع المتقاطعة في المدينة العـربيـة المكـدودة فتبـدد أسنـان السجان ، ويـرتبـك المخبرون عنـدمـا يكتشفـون أنهم يكتبون تقاريرهم تحت عيون جميع الناس وأيضاً تبدو الشقوق في قدم السلطان ويهرولون محاولين أن يستروا عوراتهم الأخلاقية والاجتماعية والخلقية التي تكمن فيها قوتهم . . . والكائنات الأخرى الصغيرة تتقافز في شارع المسرح وكأنها تقاوم السجان والسلطان والمخبرين لكنها تلعن الضوء رغم أنها تطوف حوله .

ووجهك يكبر ، يكبر ، يتدور وتجحظ عيناك ، وتنتشر على امتداد جسمك قطرات فضية مشعّة وتصبحين كتلة جدل كتلة صراع تكـونين أضخـم مسرحيـة وكـأنها خطت بقلم هومر أو سوفكليس .

ويطل نهداك أرجام تحدي وكأنهما يشيران بعلامة النصر بل هما وتد التاريخ الحيّ والثورة الصامتة وتدان يثبتان الحلم الكوني على استواء صدرك، ولكن ها هي زوابع « الربع الخالي » تزمجر مـن حـولـك في أوقـات الزوال وكأن ساحرات « مـاكبـث » الثلاث يشحـدنها لتعـاود العصـف دائماً ويبقى نهداك أقـوى وتتراجـع مساحات الخلاء في ذلك الربع وتغشاه الخضرة من عبق روحك العاصفة التي تكرر نثر البذور في أصقاعه .

يعاودك الوجع . . . وتسيل حبات دموعك الصافية على خدك قطرات نفح ربيعي ، ويرتفع بصرك الى أعلى في مناجاة وتأمل كأنك تقرئين صفحة السماء .

وأطوي صفحات فهرسك وأمد يدي للمجلد الأول وأحاول فك « الشفرة » .

الحزن:

كم يبدو هذا العنوان مؤلماً وقاتماً . . . ولكـن معـاني الكلمات في هذا المجلد مثل ألوان قوس قزح، وقد يصبح المرء ضحية مغالطة اللفظ فحـزنـك ليس تلـك « الحالة » التي يعرفها علماء النفس بأنها الانعكاس الظاهر لحالة الضيق الداخلي بسبب الاحباط، إن حزنك « مبدأ » وليس حالة . . . هذا الحزن « المبدأ » لم تزرعه في اعماقك أصابع والدك الاجتماعية فقط، بل كان « طين الحائط » في البيت وفي الشارع وسهو الآخرين سهوهم عن ذواتهم فتوهموا، أن قصور الجاه والمستوى لا تعلو أركانها الا من أوصال « المرأة » . . . وقد أعمتهم أسطورة الجاه والمستوى والشرف، أعمتهم عن قـراءة وجهـك، ومـا كانوا قادرين على غير « العمى » .

وفي داخل أسوار النفـاق الاجتماعـي والخوف مـن الوهم ترعرع حزنـك واصبـح لقلم الشـاعـر « سهـوة » فغصت الريشة فقد كان هذا الحزن المبدأ أكبر منها؟ عاش الشاعر على أطراف الحزن ولم يستطع أن يفجر أبوابه الرخامية ليولج عالم« شجرة الخلد » . كان أسير لغة

القرن الأول واللغة هي أسرع وسيلة للنقل عبر القـرون . اكتفى بأن يتخذ من « كنز » الحزن فراشاً يتمدد فوقه ولم يعلم أن في داخل هذا المهد « حياة » ، كان الشاعـر أسير الأدوات الاجتماعية والمفردات والجمل الموروثـة . . . لم يهتد الى مفتاح مهد الحزن . . . لأن هذا المفتاح لا يوجد في أكوام ميراثنا الاجتماعي بـل هـو مـن جنس ذلـك « الحزن المبدأ » . . .

اعذريني ، فانني أجد نفسي مـدفـوعـاً للاستنجـاد بالتفسيرات « القدرية »

- ما هو السر في امتداد هـذا الخيـط الدرامـي ، خيـط الحزن من البيت الأول الى البيت الثاني ؟
- كيف تسكن روح الشيخ الواعظ عقل الشاعر ؟ ؟
- كيف يقرأ الشـاعـر حـروف الحزن بصـوت الشيـخ المعمم ؟
- نعود الى القصور المبنية من أوصال المرأة . . .

لو بقيت من بحرك قطرة ، لعـاودت الفيضـان مـن أنفاسك زفرة تخلق زوابع آهة تـولّـد رعـوداً وتنبـت غابات القدر الوردي الرهيب في هـذا القـوام النحيـل

المكدود، تسكـن دنيـا . . . الدنيـا الكبرى، بحبر الحزن الرمادي ترسم خرائطها .

في أقصى هذه الدنيا تسكن أمّة وفي أدناها يتحلق حملة المشاعل دنيا مسكونة بكائن موسيقي، يردد لحن « البذرة » الأولى .

هذه « مدينة الكرة الأرضية » ، هناك تمتد حـديقـة « اليقين » الأرض تتكاثر بين جداولها أغصـان التـأمـل وسياجها مصنوع من عسجد مرصع بالتوبة . وهنا في هذا المكان من مدينة الكرة يرقد شاطىء يتكىء على حافة محيطك الأزرق المشرب بالحمرة والسواد، والموج يلطم نتوءات الشاطىء فتنطـق « مـدينـة الكـرة الأرضيـة » تتحدث بلسان عربي مبين . هنا لا توجد « شفرة » فتراب الشاطىء وماء المحيط ونتوء الحجر هي تضاريس صفحة وجهك تغشوها أنفاسك فتـولـد العـاصفـة وتـرتفـع الصخرة، وأعاود القراءة .

هذه الحروف هـي انسيـاب شـوك تنبعث الروح الأندلسية من قمة العاصفة ، وهذه جبهتك الرخامية امتـداد الشاطىء على صفحة المحيط وهذا أنفك، نتوء القدر

متطلعاً نحو البحر وتراب الشاطىء، وخدك هو الشاهـد هو حامل الوحي بين هذه الدنى، وتعلو عيناك، هما كوّة القـدر ينظـر منهـا اليـك... الى «مـدينـةالكرة الأرضية»...

هنا تتحول الطبيعة الى «نـاسـوت»... و«تحلين» احلالا تجسيدياً في الكل.

هذه المدينة، مدينة الكرة الأرضيـة إلّهها الحزن، وجبريل حامل الوحي فيها هو لغة «بيدبا». شفتاك هما عصا موسى التي لا تخضع لناموس الطبيعة تكسر قاعدة الاستطراق في الماء، وهي البرد والسلام التي تمنع النار من ممارسة قانون الحرق فينجو ابراهيم، بين شفتيك تسكن روح بيدبا وعصا موسى ونار ابراهيم.

تلك هي قوانين مدينتك، قوانين النجاة...

ما هذا الشارع الذي يفلق قلب هذه المدينة، فيه أقوام كأنهم وصلوا للتو من «نينوى» يمارسون طقوس العشق القدسي، يقول البعض انهم من عبدة النار، أو دجالون من حاشية زرادشت أو دبشليم.

أزقة هذا الشارع تعبـق بـرائحـة القصـب والتمـر

يقدسون حروف العلة حروف العلة . هي جسر الامتداد بين وتدي التاريخ « نهداك » بينهما تنتشر الدنيا ويزمجر بحر الظلمات .

وتمضين ، عاصفةً ، برقاً ، غضباً ولكن في عمق (جبل الثلج السام) تبدو مسبحة صوفي متعبد ، حباتها جمع أشياؤك تلتقطينها من وسط الدغل وتنفخين فيها من حزنك فيكبر فيها الخشوع ويتحقق « الفيض » .

وأقلب ، أقلب صفحاتك ألقى فرحاً ، ألقى هماً ، أرى شهرزاد يغشاها النعاس ، وأسمع دبيب أرتال جنود الاسكندر . أرى امرأة العزيز تقطع التفاحة وتدمي يدها . أسمع يوسف يهتف (يا صاحبي السجن) . . . في صفحاتك يا صديقتي تكمن دنيا ويعيش تاريخ ولكن من يقرأ . . . من يقرأ سطور اللوح المحفوظ على رواية (عشقك لمدينة الكرة الأرضية) ؟ . . .

أتعلق بسطور كتابك ، سطور كتابك هي الصراط ، صراط الحزن الممتد من أخمص قدمك النحيلة الى استدارة خصرك الخاتمي .

الانتظار:

عندما تكبرين تصغر كل الأشياء من حولك عدا الحروف، فالحروف هي جوارحك وهي القوة العاملة فيها عندما تبتسمين تفرضين توقيتك على الدنيا فهذا الافق هو الضحى الذهبي، وها هـو خـدك أداة رفـع يتعدى أثرها كل فاعل فأنت الفـاعـل وكـل الأشيـاء أمامك تغدو مجرورة مجزومة ومنصوبة.

من صمتك، من غضبك، وسكوتك، وسكـونـك يولد الزمن الراهب، الزمن القاتل وتتكاثر دنيا تزرع وتغني يولد الكائن الحر...

7 ـ هوية الشعر

الحروف كتل حجر يحملها الكاتب والشاعر يحرق بها مواقع الظلم والتكبر، ويبني بقوة لظاها جبال النار المقدسة التي تبقى تهمز في ذات الأحرار، وتتراكم تلك البناءات الخارقة لتغدو حصوناً وأرجاحاً تشهد التاريخ على لوعة الاحرار وحرقة المبدعين من أجل عالم جديد جميل وسعيد.

والشعر هو ديوان العرب، فيه صورة أحلامهم وفي حروفه تسكن ينابيع رؤيتهم للدنيا وللقيم، وبه شقوا طريقاً في آداب الدنيا. والاجتهادات المتباينة حول قدرة هذا الشاعر العربي أو ذاك وامتيازه عن سواه من الشعراء وازدهار المكتبات العربية بآلاف الكتب النقدية والتفسيرية للأعمال الشعرية كل ذلك هو كنز ثقافي للأمة العربية لا تجاريها فيه أمة على وجه الأرض... وفي الآونة الاخيرة قامت ثورة نقدية في الوطن العربي حول

مضمون القصيدة العربية وتحليـل أركانها ، فهنـاك مـن وصف الشعر العربي بأنه مجرد ابداع شكلي مشدود الى البنية أكثر من اهتمامه بالمضمـون بـل ان بعـض النقـاد اعتبروا الشعر العربي مجرد ثابت من الثوابت في التراث الادبي العربي وأن هناك الحالحاً للتغير في بنية القصيدة وموضوعها .

ورأى نقاد آخرون رؤية مخالفة وهي أن الشعر العربي ملمح أساس من ملامح الامة العربية ولا بد اذن من العض عليه بالنواجذ لأنه رابط تراثي يربط أبناء الامة العربية ويساهم في تكريس الوحدة القومية .

وقال نقاد آخرون أن الشعر العربي يعاني من فقر في المضمون وأن النماذج الشعرية الغربية تتفوق على النموذج العربي لأن الشعر العربي في أوروبا وأمريكا يرتكز على قاعدة (الذروة) التي تتوج القصيدة حيث تبدأ القصيدة من نقطة محددة وتتحرك في سياق مضموني نحو نقطة أخرى لعلها خاتمة القصيدة كقمة نفسية وبلاغية ولغوية للقصيدة ولكننا لو قرأنا مدخراتنا الشعرية بعيون نقدية معاصرة وبنفسية عربية نقدية سويـة غير مستلبـة وغير

واهنة أمام المدارس الادبية الاجنة لاكتشفنا مضامين كثيفة عظمى. نقول ذلك من باب النظرة الموضوعية وليس من باب المصادرة أو مغازلة التراث، فلنقرأ هذه الابيات للمتنبي التي قالها في مدح علي بن أحمد بن عامر الانطاكي... يقول المتنبي:

دعاني اليك العلم والحلم والحجى
وهذا الكلام النظم والنائل النثرُ
وما قلت من شعر تكاد بيوته
اذا كُتِبتْ يبيض من نورها الحبرُ
كأن المعاني في فصاحة لفظها
نجوم الثريا أو خلائقك الزهرُ
وجنبني قرب السلاطين مقتها
وما يقتضيني في جماجمها النسرُ
وأني رأيت الضوء احسن منظراً
وأهون من مرأى صغير به كبرُ

ويقول المتنبي في حضرة من يمدح أنه يمقت السلاطين ويكرههم وأنه يتمنى العصف بهم وأن يلقى بجماجمهم للنسور. وتلك القصيدة تكشف جانباً من الصراع الذي

يدور في دخيلة المتنبي، فهو كانسان عربي حر يعتز بعروبته وبكرامته يترفع عن الخضوع للسلاطين ولكن الحاح الحاجة جعله يهادن بل يتنازل عن كرامة حروفه التي يقدسها من أجل مدح هذا الحاكم أو ذاك، ولكن المتنبي الشاعر الفارس الحر ظل دائماً في حجم كلماته وهذا ما شهد به كل النقاد والباحثون؛ فهو عندما يمدح الحاكم انما يمدح نفسه وهو الذي اشترط على سيف الدولة أن لا يجثو في حضرته وأن لا يقبّل الأرض أمامه بعد أن يفرغ من انشاد مديحه له بل أن بعض الحكام هم الذين وقفوا في حضرة المتنبي. ونذكر أيضاً عمرو بن كلثوم الذي تحدى عمرو بن هند وأطلق كلمات معلقته أمامه مفاخراً متحدياً رغم الظروف الصعبة التي كان فيها قوم عمرو بن كلثوم عندما قال:

أبا هند فلا تعجل علينا   وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا   ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غرٍّ طوالٍ   عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه   بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفةً عليه   مقلَّدةً أعنتها صفونا

وأنزلنا البيوت بذي طلوح الى الشامات تنفي الموعدينا
وقد هرّت كلابُ الحيّ منا وشذبنـا قتـادة مـن يلينـا
متى ننقل الى قوم رحـانـا يكونوا في اللقاء لها طحينـا
يكون ثفـالها شرقـي نجد ولهوتها قضـاعـة أجمعينـا

فهذه القصيدة التي تشتعل اعتزازاً بالحرية وتمسكاً بها وافتخاراً بالشجاعة، هذه القصيدة مثلث أمام ملك حاكم تبين أن الشعر العربي هو من الصراع والمواجهة وحتى عندما يطوع لمديح الحكام فـانـه يتجـاوزهـم، ولكـن الموقف يكشف الصراع الذاتي للشاعر فهو كمبدع يتمرد على القيود ولكن رياح الحياة الشديدة تغل قوته وتسد أمام حروفه الدروب فترتد هادئة مهادنة وبرغم كل ذلك فإنها تبقى حروف مشحونة متأهبة للاشتعال.



8 ـ طاقات الأسطورة

الناس يؤرخون بالأحداث الكبرى ويـؤرخـون لها ويؤلهون ما يجهلون ويصنعـون مـن الكلمات والحروف جسوراً يعبرون لها إلى أعماق تلك الأحـداث الكبرى. وبسلاح اللغة يرى الانسان كل مجهول ومع كل حقبة تكبر النفوس وتكبر العقول وتزداد أداة التعامل العقلي وهي اللغة تزداد غنى وعمقاً وقدرة وتأثيراً.

فالتفكير عندما يعبر عنه باللغة يصبح فكراً ويصبح التفكير كائناً حياً مؤثراً فاعلاً عندما تحتويه اللغة، وهذا الفكر الذي يسكن اللغة هو بهويته كائن منحاز منتم وحتى الذين يحاولون نفي هذه الصفة الجوهرية الكامنة في الفكر فإنهم يـؤكـدونها عنـدمـا يسردون مبررات ما ذهبوا إليه.

منذ أن تمكن الانسان من اللغة واستخدمها استخداماً تجريدياً سامياً تأكد انحيـاز اللغـة ومضـامينهـا حسـب

الظروف الزمانية والمكانية .

هوميروس . . . الذي لا يزال المثل الأعلى لدى الكثير من المبدعين والنقاد لتمكنه من استحداث قاموس ابداعي خاص للمأساة الانسانية وقدرته على تصوير المأساة الانسانية بعمق وتحليل دقيق كان منحازاً في قمة أعماله المأساوية للحياة راسماً علامة استفهام ضخمة أمام البشرية واضعاً الانسان في مواجهة القدر أي مواجهة ذاته التي يشكلها الطموح فيه .

والسؤال الذي طرقه هوميروس من خلال مأساوياته هو : كيف يقوى الانسان على تحطيم القيد ؟ القيد الذي يلتف من حوله بحكم وجوده ويشكل الخطر الدائم المحدق بحريته وبقراراته ؟ . وكيف يتمكن البشر من السيطرة على مقدراتهم . . .

ان الواقع الاغريقي القديم بما يعج به من أساطير وعلاقات اجتماعية وبنى اقتصادية متحكمة وما يحوط ذلك كله من ظروف دولية دفعت هوميروس الى كتابة ذلك السؤال الضخم الذي تضمنته أعماله المسرحية المكثفة .

واذا كانت الأسطورة كما يرى بعض الباحثين سابقة على اللغـة فـانها أداة اثـراء اللغـة . . . وفي المحـاولات الاخيرة لتشريح الأسطورة وولادتها ومضمونها توصـل الدارسون الى أنها وسيلة لشحن اللغة برمـوز خيـاليـة ميتافيزيقية قادرة على تصوير الافكار بعمق، فالأسطورة هي الوعاء السحري القادر على استيعاب ما يزيد عن حجمه عشرات المرات . . . فالاسطورة هـي لـون مـن ألوان اللغة وتعكس في ذات الوقت الانماط الفكرية السائدة . . .

وقد ازداد الاهتمام مـؤخـراً بـدراسـة الاسطـورة وخاصة من الزاوية النفسية والاجتماعية على أساس أنها تعبر عن أحلام أو تطلعات بشرية لا يجد الناس طريقاً الى تحقيقها فيلجأون الى تجسيدها في الاسطورة .

ومن هذا المنظور النفسي والاجتماعي للاسطورة نجد أنها تعج بالطموح الانساني نحو التخلص من قيود السلطة الزمنية التي تتحكم في اختياراته وتحاصر توجيهاته مما يسبب تراكماً نفسياً يجعل الانسـان ميَّالاً الى القـدريـة والقبول .

ولكن قدرة الانسان على تكسير قيوده وقـوتـه على اشعال الثورة تمكنه من جعل اللغة أكبر من الاسطورة وقادرة على احتوائها .

في السنوات التي تأججت فيها نار الاحساس بالضيم والاستعباد الاستعماري في افـريقيـا انـدفـع الانسـان الافريقي نحو تراثه واستل من أعماق الخرافة الافريقية سيفاً أخلاقياً وثقافياً واجه به الاقتحام الديني واللغوي والثقافي الأوروبي لافريقيا .

الغابة في الأسطورة الافريقية حولها الشعراء الى دنيا حية لا قبل للرجل الاوروبي الابيض بفهم شوارعها وساحاتها ولا حيلة له أمام الكائنات الرهيبة التي تعج بها الادغال . . . وكانت الغابة في المقابل وفقـاً لاستخـدام الاسطورة هي البحر الجميل الذي يسبح فيـه الانسـان الافريقي الثائر ومن سيقان اشجارها الباسقة يشعل نيران الحقد المقدس ضد الاستعمار .

هكذا تمكن الشاعر والأديب الافريقـي مـن شحـن الاسطورة بلغة جديدة ملغمة تنفجر بسرعة أمام أول تحرك أوروبي . . . فسرت في القـارة السمـــراء روح

سحرية ثورية تحرق التحكم فوق الأرض وفي الرؤوس وكانت اللغة والتراث أقواساً نارية تحاصر الاقتحام الثقافي الاستعماري الاوروبي .



9 ـ الحب أكثر من لوعة

كيف نحب . . . وكيف نحيا . . .

ان ذلك القالب الفسيفائي المزخرف لكلمة الحب التي ترتبط بالشجون والالتياع والهجر . . . كل ذلك يعبر عن التطواف خارج روح وكيان فعلي الحياة والحب .

والتعبير عن هذا الاحساس هو الذي يبث الحركة في تلك الأفعال . وإذا كان الانسان في الحياة اليومية السيارة تشده ضجة الحياة والامور التي يأخذ بعضها برقاب بعض حتى تجعله يعيش ويركض فوق السطح ولا يقوى على ولوج الاعماق فان الكلمات الحادة هي التي تنفذ بقوة في دخيلة كل فعل وشيء تملأه نوراً وحياة . . . وهكذا نرى الأشياء ونحياها .

فالحب ليس مجرد حمى التياع ، تحرقنا فيها عيون الحبيب وتهزنا فيها آهات الذكرى لكنه أكبر ، إنه الحرقة للحياة والحرية والتوحد فالذي يسرق ذاتك بأي

أسلوب كان، هو عدو لك والذي يسرق الوطن يلغي الحب من وجـودك والذيـن يستعبـدون النـاس هـم في الحقيقة العبيد .

يقول الشاعر أوستاش برود نسيو من بنين :

كنا نعيش ببساطة، وسعادة منذ فجر الحياة .
كنا أخوة جميعاً ـ نأكل فـاكهتنـا ونشرب مـن ينابيعها .
ونستنشق الهواء ـ ونغني لها ونرقص .
ويغمرنا ضوء القمر .
ثم جاء يوم ـ حين نزلوا على شواطئنا .
هؤلاء الحيتان
واختفى السلام ـ والاغاني ـ والرقصات .
لقد انقضّت على أكواخنا تلك النسور .
لم تكفهم تلك المحيطات والهواء فجاؤوا يحتلون أرضنا .
لماذا ؟ قولوا لماذا ؟
كانت عندهم البنادق ـ كـانـت لـديهم الخمـر .
وكانت لديهم أكثر من هذا الأكاذيب ـ والكراهية .

لم تكفهم أرضنا ـ فخطفوا اخواتنا واخواننا
وأولادنا
وحملوهم الى قارات أخرى
كان علينا أن نزرع حقولنا لنملأ خزائنهم
وكان ما نقبضه ثمناً هو الاحتقار والعنف .

كانت تلك الصرخة اللغة التي أطلقها شاعر يتحرق للحرية شاعر ملتاع من حقد الاوروبي الأبيض الذي هاجم افريقيا الضاحكة الراقصة التي يسكن الحب اكواخها وتملأ السعادة صحراءها وأدغالها .

قال المستعمرون أنهم جاؤوا يحملون الحضارة الى ذلك اليباب الصفصف الذي يسمى افريقيا ويزرعون فيه الحياة ويؤسسون فيه الحضارة، لكن كلمات الشاعر فضحتهم في مقارنة بسيطة بليغة مبينة براءة افريقيا وسعادتها وبين حقد وهمجية الرجل الابيض يقول الشاعر برود نسيو:

ذلك ما حمله الاستعمار الاوروبي الى افريقيا ليحرق به الحرية ويدمر به الانسانية في افريقيا .

كانوا يحملون شريعة الاستعباد... كان علينا أن نزرع حقولنا لنملأ خزائنهم.

وفي مقابل ذلك كانت افريقيا - كما يقول الشاعر - تمتلك السعادة والبساطة والأغاني والرقصات... تمتلك الحرية.

في هذه القصيدة (سنأتي الى الميعاد)... يقول الشاعر بنين أن مؤهلات الرجل الاستعماري الابيض هي مؤهلات الافناء والسوء والاستعباد ومؤهلات افريقيا مؤهلات للحياة والسعادة اذن هي التي تملك المستقبل ولها قدرة الانتشار والامتداد. ويقول الشاعر في ختام قصيدته:

ونحن الآن نجري في العالم كله
بنغمنا
وبحب الحياة
ضحكاتنا لا يمكن تقليدها
لأنها واضحة ومفتوحة
لأنها نقية وجميلة
ولأن اسناننا بيضاء وقوية

أيدينا ليست خالية
وسنأتي الى الميعاد
مع القارات الخمس
بأغانينا ورقصاتنا .

وفي هذا التقابل العميق الجميل بين قوة الحقد العنصري الابيض وقوة الانسان الاسود المشحونة بالعاطفة الخلاقة الفَرِحَة في هذا التفاؤل يحدد الشاعر كيف تكمن القوة الانسانية الحقيقية المبدعة ويسفه أوهام الرجل العنصري الاوروبي الابيض .

فافريقيا ستنتشر وسيسود الانسان الافريقي في العالم عبر شرايين الحياة الحقيقية التي تزرع الحب والسلام والابداع لأنه مملوء بقوة الخلق والحياة .

تلك أغنية من أغاني الحرية الرقيقة يفوح منها عبق الحب للحياة والسعادة، قصيدة مشحونة بالوجد الجميل والاحلام الواعدة بقوة السعادة والتألق .



10 ـ التراث ـ الماضي في حالة حياة

التراث ، أي كلمة تلك التي عنها نتحدث . إنه ذلك الوجود الهائل الذي تسكن فيه حياة مضت وفيه تتركز خبرات وتجارب تدفقت من شلالات التاريخ وصراعات الحياة. والبعض يعتبره شيئاً مقبوراً وهؤلاء البعض يعتبرون أن كل شيء قابل للموت فاذا كان الناس الذين وجدوا وأوجدوا في العصر العباسي أو المماليكي أو غيرهم اذا كانوا جميعاً ماتوا وانتهوا فان ما خلفوه من ارث فكري هو أيضاً في حكم الموت . وأصحاب هذا الرأي يقولون بأن عمر الثقافة هو عمر مبدعيها وهم يَصِمُون من يدعو الى دراسة التراث والاختصاص فيه وبث الحياة فيه ، يصمونه بالسلفية ، والسلفية في تعريف هؤلاء تعني الحياة في عصر سلف أي عصر مات وليس مجرد عصر مضى وهذا الرأي لم يجد مؤيدين ورفضه كثير من الباحثين والمؤرخين والدارسين .

وبالنسبة للتراث العربي فانه قد شهد اهتماماً هائلاً منذ بداية هذا القرن، وسرت عملية إحياء هائلة في كل فروع وجوانب تراثنا الفكري وحتى الذين درسوا التراث بهدف الهجوم عليه قدموا خدمة كبيرة للتراث وللأمة، فقد قامت معارك ومناقشات فكرية وتاريخية وعلمية حول الكثير من القضايا والتخريجات التي بثت الحياة بقوة في تراثنا العربي لأن هذا الضرب من التعامل مع التراث هو ضرب جديد فالمدارس السابقة على عصر النهضة العربي كانت تكتفي في تعاملها مع التراث بالشرح والتفسير أو التشعيب أو التفريع والتنويع ولكنها قلما اتجهت الى التحليل أو الاستنباط.

اذن فهناك رؤية جديدة للتراث هي رؤية الحياة التي لا تنقل الناس الى رفوف القرون الغابرة لتعيش مع الكتب والمخطوطات في تلك الحقبة الزمنية، وإنما تنقل المخطوطات والمطبوعات التي تعرف بأمهات الكتب الى خضم العصر وتبعث المعارف التي بها حية عن طريق معالجة ذلك التراث نقدياً وتحليلياً من رؤية ومعاصرة، ولذا فاننا لا نقرأ التاريخ فقط لنعرف أن فلاناً انتقل

سنة كذا من ذاك المكان الى صقع أو ربع آخر ولكن لنعرف دلالات الاحداث وسياقاتها ومضامينها .

والحديث الذي بدأ يدور حول تحديث الفكر العربي أو تجديده أو تطويره يتحرك في ذات الدائرة أي معالجة التراث بشكل يمكنه من الحركة، الحركة تجاه عصرنا وحياتنا وأن يستمد قوة الحياة حتى يستطيع أن يقتحم لنا المستقبل لا أن يكون مجرد أطلال نناجيها ونزهو بها مثلما نبهر ونشد بمحتويات المتاحف .

ان الانسجام بين المرء وتراثه يتم عندما يتخلل كل منهما الآخر ويغدو التراث وقوداً فنياً وأدبياً وروحياً أي وقوداً حضارياً قوياً يحرك الناس نحو أفق يمتلىء بتطلعاتهم أو ما يسمى بصورة الطموح، وتلك الصورة يتدخل التراث تدخلاً كبيراً في رسمها وفي الوقت نفسه يساهم في دفع الناس نحوها، فهو الحادي الذي يمتزج بالناس في حركتهم التاريخية نحو أهداف يرتأوها وينشدوا اليها وينطلقون نحوها، فالشعوب التي تطوطم تراثها وتجعله محاطاً بقلاع من الخرافات انما تطلق الرصاصة على ذلك التراث بل وعلى المستقبل أيضاً لأن

الشعوب الحية القوية مثل الافراد لا تقف عند حجم ما ترثه عن أسلافها وانما تتوقد ابداعاً وخلقاً واجتهاداً وهي بذلك تتمكن من فرض وجودها وتحديد ملامحها وهويتها ، وإذا كانت رحلة البشرية هي رحلة الأمل في الحقيقة ورحلة الحلم بالسعادة والتألق فان الفكر الانساني يشهد وقدات تاريخية عظمى هي منارات توجه البشرية نحو الحقيقة، الحقيقة في النفوس والحقيقة في الوجود، فالحقيقة في النفس تبنى عندما يمتلك المرء بنفسه مقومات بناء ذاته وأن يكون قادراً على سلك هذا الدرب أو ذلك وهو يجمع معلوماته ويبني أسس علمه أي أن تحرير أساليب الحصول على المعرفة يؤدي الى نفسية ونفس حرة قوية سوية خالقة وفاعلة وهنا يكون دور التراث في بناء الشخصية القومية القوية، إنه ذلك البحر التاريخي الحي الذي يسبح فيه الحاضر حتى يعبر الى ضفة المستقبل .

أما الذين يحنطون الماضي ويعتقدون أن الحقيقة هي في اجترار ما كان ببطون الاسلاف، أن أولئك يحفرون قبور الحاضر ويطلقون النار على المستقبل فالحياة حركة

عنيفة وتفاعل كيماوي انساني خطير لا يؤثر فيه الا الفاعلون المبدعون .

والتراث العربي ، تراث يمتاز بغنائه الخاص وله من قوة المضمون ما يجعله جديداً دائماً وهذا التراث قادر على ادارة حوار ونقاش متصل يستمر عقوداً من السنين بل قرونا ، وهذا المخزون التراثي الكبير كفيل ببناء شخصية عربية لها من العمق والقوة ما قد لا يتاح لغير العربي .

علم الكلام والتصوف والفقه وعلوم التاريخ وكتابات الرحالين العرب وكتب السيرة والترجمات ومجالس وروايات الحكمة كل ذلك يشكل طاقة تراثية هائلة .

واذا كان علم الكلام والمناظرات الفكرية والاجتهادات المتباينة في تفسير نصوص القرآن والجدل الطويل حول مصادر الفكر ومعايير صحته كل ذلك ساهم في اقامة منهج علمي في الفكر العربي لم يتأت لغيرنا الا في عصور قريبة وبشكل محدود .

واذا كان أرسطو قد دشن ووضع قواعد المنطق الصوري ، وإذا كان هوميروس وسوفوكليس هما واضعي

قواعد المسرح وخاصة المأساوي، واذا كان الاوروبيون في عصر النهصة قد ابدعوا النظرية العلمية الجديدة في الطاقة والحركة والميكانيكا فان العرب قد سبقوا هؤلاء كلهم من حيث استخدام الامكانيات العقلية للبشر الى أقصاها .

والعرب ليسوا غيبيين أو قدريين كما يصورهم بعض الباحثين المعاصرين، وليسوا عاطفيين ينحون إلى التهوين والتبسيط، والتراث العربي يؤكد أن العقلية العربية، عقلية تحليلية استقصائية يكفي أن نقف عند قضية الجبر والاختيار التي أخذت الكثير من اهتمام المفكرين والدارسين العرب وشكلت محوراً أساسياً وقوياً في منهج الفكر العربي تلك القضية التي تركز حولها اجتهاد المتكلمين العرب تكشف أن ما يقال الآن عن الاسلوب التحليلي والعقلي الذي أخذ به اعلام عصر النهضة في أوروبا هو أسلوب ليس من ابداع تلك القارة ولكنه وليد المدرسة العربية . وارتباط علم الجدل والكلام من الناحية الفكرية بتطوير اللغة العربية في ذاتها يؤكد المنهجية العربية في ربط الاداة بالمضمون كطريق

للوصول الى الحقيقة .

الاختلالات الكبيرة التي تشهدها مسيرات الامم تسبب ارتباكات خطيرة تجعل التيارات الجذرية والهامة تتباطأ وقد تتراجع . فالظروف السياسية والانقسامات والتشرذم الكبير الذي حل بالعرب بعيد الفتنة الكبرى وما ترتب عليها من مذاهب وأحزاب كل ذلك جعل الانطلاقات الفكرية تتراجع أو تنحرف، فقد كانت مدرستا الكوفة والبصرة تيارين متكاملين في تطوير علم الكلام وعلم اللغة وشكلتا هبة علمية قفزت بالأمة العربية الى الصف الأول بين الامم القديمة من فرس وهنود .

ولكن التراث بقدر ايجابيته قد يتحول الى أداة سلبية خطيرة فالتصوف الذي يمثل جزءاً كبيراً من التراث العربي قد يبرز في بعض الحقب ويتحول الى كهف يهرب الآلاف بحثاً عن الخلاص الذاتي تاركين الدنيا وراءهم . وينعكس هذا الموقف على الحالة الاجتماعية العامة فتسود حالة من الاستسلام والخضوع وتزول الفواصل بين ما يحكم به الله وما يحكم به الحاكم . وقد استغل الطغاة والمستعمرون التصوف كأحد جوانب الشخصية العربية

في تكريس القبول والخضوع وتعميق روح الهروبية والقبولية .

وإذا كان علم الكلام يمثل جانباً إيجابياً غنياً في تراثنا العربي . . فإن التصوف يشكل جانباً سلبياً لأنه يغذي الروح الغيبية المطلقة التي تُضْعِفُ ولا تُقوّي . والحديث عن الكرامات يطول ، فالكرامات هي تعبير عن اللاشعور في حالتي الضعف والكبت فالفرد المقهور المستلب الذي يحلم بالحرية وبالرفاهية يحلم بأن يحقق أشياء محددة في الحياة لا تسعفه روحه وإرادته المتخاذلة على أن ينطلق عملياً نحو تحقيقها فيسكن الى الخيال الكاذب وينتظر المجهول ويتصور أن فرداً صالحاً ترضى عنه السماء سوف يحقق لها بصورة سحرية كل أحلامه .

فالتراث ذخيرة حيّة مخزنة ولكنه قد ينفجر فيصيب أصحابه ما لم يكونوا قادرين على اطلاقه قوة وابداعاً في وجوه أعدائهم .

11 ـ الآخرون

الآخرون، كلمة لها فعل التيار الشديد في النفسية البشرية عامة والعربية خاصة.

سارتر... يقول: (الآخرون هم الجحيم). فالفرد في الرؤية الوجودية عالم قائم بذاته له دنياه الخاصة وقوانينه الذاتية وله مع نفسه علاقات متعددة معقدة متشابكة ولكنها في النهاية منسجمة. وفي نظر هذه المدرسة أن الانسان يحقق سعادته عندما يتخندق في حصنه النفسي الذاتي وينفك عن كل ما هو خارجه ولكن مجرى الحياة المعاصرة كشف أن الفلسفة الوجودية كانت مجرد نزوة سوداوية سرت في أوروبا وكان لها أصداء طفيفة أو عنيفة في بعض بقاع العالم ولدت تلك النزوة بين الحربين العالميتين وتصاعدت بعد الحرب العالمية الثانية ورأينا لتلك الحرب ردود فعل أدبية وثقافية ونفسية هائلة نتيجة الدمار الذي حل بالعالم والدماء التي تدفقت من كل

مكان حتى غطت على كل ما سواها واكتست أغلب دول العالم مسحة سوداوية نتيجة ملايين الضحايا والكوارث التي أنزلتها الحرب بالبشرية .

الآخرون في التراث العربي تعني الأعداء ، أعداء الوطن والدين . فالأمة العربية لسعتها سياط العـدوان الاجنبي أكثر من سواها من شعوب الأرض وتعرضت لألوان شتى من الاعتداءات العسكرية والثقافية والفكرية . لقـد تمكنـت الأقليات التي وفدت الى الوطن العربي في أيام الضعف والانحطاط من السيطرة على مقـدرات الامـة العـربيـة وشوهت النفسية العربية عن طريق اقـامـة حكـومـات وسلطات أجنبية تتحكم في بعض أجزاء الوطن العربي مثلما فعل المماليك . وساهم الاجانب عن عمد في تشويه الثقافة العربية عن طريق ترجمة بعض الاعمال الاجنبية ذات المضمـون القـدري الهروبي غير المبدع ، والذيـن يعتقدون أن ترجمة الآداب والفلسفات الاجنبية الى اللغة العربية قد ساهمت في التطوير الفكري والثقافي العربي انما يتبعون اسلوب الاستنتاج المباشر غير العميق حيث أن الترجمة جاءت في وقت كانـت فيـه الأمـة العـربيـة

تؤسس ثقافتها الخاصة وتنشىء مضموناً فكرياً عميقاً ناتجاً عن تجربتها الحضارية ذات الخصوصية المعينة. والآخرون، جاؤوا الى الوطن العربي عن طريق الغزو المباشر في العصر الحديث فدمروا بداية التكوين الوحدوي السياسي للأمة العربية وسارعوا بادخال أنظمتهم السياسية والثقافية والتعليمية. وإذا كان التأثير الاوروبي في افريقيا اعتمد أسلوب التبشير واستخدم الدين المسيحي لحصان طروادة للاستعمار الغربي فإن الاوروبيين بالنسبة للوطن العربي ركزوا على أسلوب التعليم والنظام السياسي، فالاصلاحيون العرب في عصر النهضة العربية الاخير سلموا بكل الانماط الاوروبية واتخذوا من أوروبا المثل الذي يعبر عن نهاية الطموح وكانت النتيجة أن فقدت الأمة العربية هويتها واقتصرت على ممارسات دور المتأثر والمتلقي وتوقف تأثيرها في كل المجالات...

ويمكن أن نغير مفهوم (الآخرين) تاريخياً وحضارياً بالنسبة لنا عندما تنطلق الارادة الفعلية العربية وتسهم في الحصيلة الفكرية الانسانية عن طريق تقديم الحلول

للمشكلات الانسانية المزمنة . وعندما يتحـول الانسـان العربي الى إمام يهدي البشرية الى سواء السبيل والامة العربية تمتلك تراثاً يتمتع بخصوصية هـامـة بين التراث الانساني فهو تراث بناء وابداع والحضارات التي انطلقت من الأرض العربية كانت دائماً حضارات سلام وبناء والعالم المعاصر في حـاجـة الى حضـارة لا تنطلـق مـن الصراع ولكن ترتكز على العدالة والاقناع . وإذا شخَّصنا علـل المجتمـع الانسـاني المعـاصر وعلى رأسهـا علـة الاحتكار فان دواء هذه العلة لا يوجد الا في الفكر العربي المشبع بالروح الاجتماعية الانسـانيـة التي تسمـو بالانسان وتعتبره الوسيلة والغاية وهذه الرؤية الحضارية الانسانية هي الكفيلة بأن تقلب مفهوم (الآخرين) حيث يسود السلام والامن العلاقات الانسانية وينزع من دخائل البشرية فتيل الصراع والحروب وهذا يكون عندما تتصل الشعوب مباشرة دون حواجز .

12 ـ الاغنية ـ جمال حي

الاغنية . . . أو ذلك الكيـان الجمالي المنطـوق الذي يعرض في موكب ملحن منغم يتـوافـق مـع قـوانين الانسجام الانساني ويخلق في النفس شعوراً بالتجسيد، تجسيد الاحساس أو تجسيد الجمال أنه يُوجد ضرباً من الراحة الداخلية في الذات .

هذا الكيان الجمالي يتراكم في الوجدان فيؤسس انتماء نفسياً داخلياً قد نسميه الطرب أو الشجن وقد يثير أشياء أخرى قد تكـون سلبيـة أو إيجابية . وللاغنيـة علاقـة وجدانية أساسية مع الشخصية العربية وهـي دائماً تعكس عصرها، بل قد تكون عنـوان ذلـك العصر في حقـب الحرية والتطوير . تسمو الاغنية بكلماتها وألحانها وبمكانـة مؤديها وفي عصور الانحطاط تكون مظهراً له وأداة من أدواته .

الاغنية التي تقول:

علشـــــان مـــــا نعلا ونعلا ونعلا
لازم نطـاطـي نطـاطـي نطـاطـــي

هذه الاغنية ظهرت في مطلع هذا القرن، في عصر السيطرة الانجليزية على مصر. وهي من الاغاني الشعبية التي رددها الناس في الشارع وفي المصنع والحقل. هذه الاغنية هي حقنة مخدرة تحض على الخضوع والقبول وتبرره بأنه طريق!!

وعندما يصبح الناس يسبحـون بـالقهـر ويُصلّـون لقاهريهم فان الانحطاط يغدو عقيدة، والخضوع فضيلة يحرص الناس عليها... كانت تلك الحقبة اذن حقبة خضـوع وخنـوع وتسليم عبرت عنهـا تلــك الاغنيـــة وانعكست في أعمال ادبية أخرى، وكـان هنـاك جيش متخاذل يغذي هذا الاتجاه ويكرسه، وقد كان الغناء في العصر المملوكي منظومة سلاسل تقيد الناس وتجعلهم عبيداً في حضرة الحاكم وخدمته.

وفي عصر الدويلات العربية الاخيرة في الاندلس ساد أدب (الدعة) والاسترخاء والانغام الغرائزيـة فخلفـت جواً من الاتكال كان المرء في تلك الفترة يقيّم بما يملكه

من الجواري والمغنين حيث يلتقي أمـام طـابـور مـن الغانيات المغنيات متعاطياً الشراب مستمعاً الى الاغـاني المخدرة، فكان ذلك الجو من الطـرب المبتـذل مقـدمـة لاكتساح الفرنجة للعـرب واخـراجهـم مـن الانـدلس مهرولين نحو شمال افريقيا، واستعباد وتنصير من بقي منهم في الاندلس.

وكما تكون الحياة تكون الاغنية ـ فـالشعـب الذي يبدع الحياة يغني لها لأنه يعشقها بإبداعه لها، أما أولئـك الذين يستهلكون الحياة فانهم يقفون دون التغني بها والغناء لها، والشعوب التي تنطلق في حياتها بقوة وسرعة، تتحرر ايقاعاتها وترتفع أنغاماً سامية سريعة عاتيـة تعبيراً عـن وجدانها المبدع الحر المنطلق. وعنـدمـا تسـود الرتـابـة والسكـون ويغشى الجسـد الاجتماعـي مخدر الاستهلاك والاستقبال تكون الاغنيـة مجرد تثـاؤب رتيـب بطـيء تمارسه قلة مرتبكة تستهلك الحياة ولا تصنعها.

وفي عصور الازدهـار تغني الشعـوب أغنيـات النماء وهي تزرع وتطلق أنغام الفرح وهي تحصد ما زرعـت. والشعوب الحرة على طول التـاريـخ تغني أرتـالها وهـي

متقدمة تصد المعتدي تغني للحياة وتحمس وتحرض على القتال فكما يكون الشعب تكون أغنيــاتــه لأنها صــدى وجدانه والخارطة الجميلة لأحلامه وقيمه .

فالنغم، هو صورة التــألــق، والتعبير عــن السعــادة الفردية والجماعية عندما يعزف على وتر الحرية المقدس .

13 ـ المثقفون والديمقراطية

في مايو 1979 م، عقدت في فرنسا ندوة تحت عنوان (المثقفون والديمقراطية).. وكان هدف الندوة التي اشترك فيها عدد من الكتاب الفرنسيين هو الاجابة على أسئلة محددة وشاملة حول الوضع السياسي في العالم المعاصر ومكانة الانسان فيه منطلقة من القلق العام الذي يعيشه انسان هذا العصر... ماذا يريد وماذا يستطيع ان يحقق؟.

وفي هذه الندوة كانت هناك وقفات هامة تضع خطوطاً كبيرة تحت المفاهيم والممارسات الليبرالية وما تقود إليه من طمس لإنسانية الإنسان، فقد أورد جان ماري بنوا قولاً لميشال دوبريه يقول فيه:

«لا يوجد فصل السلطات، لأن مسؤولية الحياة الاجتماعية لا تتجزأ وأن الدساتير التي تقسم السلطة الى أقسام انما تقود المجتمع الى الفوضى».

من هذه المقولة انطلق الاستاذ جان ماري بنوا الى نقد النظام الليبرالي الذي يقود الى فوضى في المجتمع وإلى قلق في ذات الإنسان، لأن هذا النظام الذي يرتكز على فصل السلطـات لا يقـوم إلا بتنظيم الاحتكـارات السياسية وتكريس الاقطاع السياسي.

وتعرضت الندوة الى البرلمانـات في العـالم المعـاصر كواجهة من الواجهات الديمقراطية التقليدية ومن حيـث منشئـــهاالتـاريخي حيـث ظهـرت فكـرة (البرلمان) في ظروف تاريخية مختلفة تماماً عن ظروف العالم اليوم... فالاستاذ فلوران أفتاليون أوضح أن الفكـرة الليبراليـة ظهرت في القرن الثامن عشر، وعندئذ بـدأت حـركـة فكرية على يد رجال مثل لوك في انجلترا ومنتسكيو في فرنسا بالكفاح ضد هيمنة سلطة اعتباطية موضوعة بين يدي الملك وارستقراطية وأقلية من أصحاب الامتيازات، وعلى الفور ظهر مبدآن يقول أحدهما أنه ينبغي على جميـع المواطنين في بلـد معين أن يعيشـوا تحت حكـم القانون، والقانون يجب أن يكون واحداً بالنسبة للجميع وأن يطلق على كل واحد منهم.

ويقول الثاني أنه يجب أن يكـون هنـاك فصـل بين السلطات. ويضيف الاستاذ فلوران أنه سرعان ما ظهر مبدأ ثالث هو مبدأ دعه يفعل، دعه يمر، وكان هذا في مجتمع القرن الثامن عشر يعبر عن ثورة ضد الامتيازات الاحتكارية التي تعطـى لطبقـات اقتصادية. ويضيـف فلوران أن الليبرالية تراجعت منذ ما يزيد عن قرابة نصف القرن سواء على الصعيـد الفكـري أو ممارسـات الدول وهو يرى أن الدول التي تأخذ بالنظام الليبرالي هي الآن أكثر رجعية من تلك النظم التي كـانـت قـائمة في القرن الثامن عشر.

وتمثل تلك الندوة أهمية أساسية في مناقشة الوضع الراهن للنظام الليبرالي الغربي حيث شرحت تفصيلياً مكامن الضعف والتردي في هذا النظام الذي قال عنه ميشال بـريجان: «إن الإنسـان الحديـث المحـروم مـن تاريخه، المحظور عليه بناء مستقبله، صار طريدة سهلة لكل أشكال القهر، وأخذ يتخلى عن ثقافته ببطء.. إنه مستعد للبقاء أكثر مما هو قادر على الحياة».

يشرح بريجان أسباب هذا الخلل الذي يعيشه الانسان

في المجتمع الغربي بأن ذلك مرده الى غيـاب المؤسسات الإنسانية الطبيعية، وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة والأمة حيث يقول ميشال بريجان « لم يعد لهذا الانسان الذي هو بدون ثقافة من واقع سوى الواقع الاجتماعي، ويظن أنه وجد في جماعة كالدولة والحزب والنقابة والجمعية حلولاً لبؤسه الثقافي ،لكن هذه الجماعات عجزت هي الاخرى عن تأدية مهامها لأنها لم تعد تبرر نفسها إلا بقدرتها على إعادة إنتـاج ذاتها . وأنها تـواجـه أزمـة حقيقيـة وأن الارتباكات الاقتصادية والسياسية التي تواجهها أوروبا لا يمكن حلها بقرارات إصلاحية أو إجراءات آنية لأن النظام في حد ذاتـه، أي الليبراليـة قـام لحل مشكلات مؤقتة وليس لوضع حلول جذرية » .

وفي تلك الندوة حول المثقفين والديمقراطية استعرض جان سرفيه الوضع التاريخي للأقليات في فرنسا وعلاقة ذلك بالديمقراطية حيث قال :

« طوال الزمن كان هناك غريبٌ يأتي إلى فرنسا بشعره الاسود يسمى سارازان وهو عربي، وهؤلاء ذوو الشعر الاسود غالباً ما كانوا يغدون أحلام الغربة أو حلم انسان

ما ، كانوا يعيشون على منــوال البــوهيميين، في النهــار كانوا يشتغلون بالاجرة وفي الليل ينامون في ظل عرباتهم ويتركون جيادهم في البراري » .

اذن فالأقليات العرقية في ظل النظــام الليبرالي هــي مغبونة دائماً وتقع في أسفل البناء الاجتماعي ولم تستطع الدول الغربية أن تقدم حلاً حاسماً لقضيتهم التي تشكل أزمة تكبر يوماً بعد يوم .



14 ـ في مواجهة الغبن

الحرب والجوع يقفان بضخامة أمام العالم، وتتكرر كل يوم لعبة الكراسي الموسيقية. في كل ثانية يسقط آلاف من مواطني العالم الثالث جوعاً ومرضاً لتتحول الى خزائن الدول الصناعية عملات اضافية من نزيف ثروات العالم الثالث.

واذا كان العالم الثالث يعاني مئات الانيميات حيث الفقر في الغذاء، والفقر في التعليم، والفقر في الطب، وفقر الدم، فإن العالمين الآخرين تسري فيهما أمراض أخرى نتيجة للنظام الاقتصادي العالمي الذي يظلم النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ويزعج النصف الشمالي الى حيث تتفجر الاضرابات وتسود البطالة وتكبر جرثومة التضخم وتنخر في جسد الكيان الاقتصادي بشكل ينذر بانهيار خطير.

الكاتب الفرنسي المعروف جان جاك سرفان شرايبر أصدر مؤخراً كتاباً عنوانه (التحدي العالمي) ناقش فيه طبيعة العقود القادمة اقتصادياً وآثارها على خارطة الحياة المقبلة على مستوى العالم.

شرايبر، كأحد الباحثين الغربيين، ليس محايداً عندما يناقش الوضع العالمي الراهن. إنه حتى عندما يحاول أن يكون موضوعياً فانه يشد الى قواعد التحليل الغربي كما أنه يخطىء في الاستنتاجات العامة التي يتوصل اليها عندما يتعمق في تحميل بعض الحقائق ما لا تحتمل، بل أنه يقع في أخطاء تاريخية ويشوه المعلومات التي لا يستقيها الا من مصادر غربية. ولكن رغم كل هذا لم يجد مناصاً من الاستسلام لكثير من الحقائق الكبيرة التي لا يستطيع القفز فوقها.

حاول شرايبر أن يربط الوضع الاقتصادي المنهار في العالم الغربي بالنفط وصور في بعض الاحيان مطالبة دول «الدومن» باسعار عادلة في مجال النفط بأنه تحكم في الاقتصاد العالمي. ولكنه اعترف بأهمية الدور الذي تقوم

به الدول المصدرة للنفط بالنسبة لبلدان العالم الثالث .

وفي هذا الكتاب أكد شرايبر أن ما قامت به ثورة الفاتح من سبتمبر من زيادة لأسعار النفط كان معركة تاريخية كبرى لمصلحة الدول المصدرة للنفط ولدول العالم ، فلأول مرة منذ اكتشاف النفط تخضع الشركات النفطية الكبرى لارادة الدول المنتجة وتوافق على زيادة أسعار النفط . وأضاف : أن ما قامت به ثورة الفاتح جعل الدول الأخرى تحذو حذو ليبيا وترفع أسعار نفطها : يقول شرايبر : في 14 سبتمبر 1970 اذن استطاع بلد عربي لأول مرة أن يفرض زيادة الاسعار على كل النظام النفطي في العالم وبعد عشر سنوات من الجهود انفتحت الطريق واسعة أمام الدول المصدرة للنفط .

ويعترف الكاتب بالآثار الكبرى التي أحدثتها ثورة الفاتح على المستوى العالمي وتعبئتها للقوة القومية العربية المشحونة بالروح الاسلامية في مواجهة الاستخفاف والاستغفال الغربي للعرب .

وكشف الكتاب عن امتصاص امريكا لثروات العالم ضارباً مثالاً بصناعة وامتلاك السيارات ، حيث استغلت

أمريكا ثروات العالم من النفط وسخرتها في هذا المجال ـ ففي أنحاء العالم تسير كل يوم (362) مليون سيارة وتخرج من المصانع كل يوم (100.000) سيارة جديدة وأن 80%من سيارات العالم يملكها 10%من سكان العالم أربعون بالمئة 40% توجد في أمريكا و 18% في البلاد الصناعية الأخرى، أما الباقي حوالي العشر فموزع على المليارات الثلاثة من السكان في العالم الثالث.

ويسوق شرايبر عشرات الأدلة على الغبن والاستغلال الذي تمارسه أمريكا ضد العالم كله بما فيه أوروبا ولكنه يتوقف عند اليقظة العربية فيقول:

فالعرب كانوا في نظرهم ـ في نظر الامريكيين ـ يملأون بطونهم بعائدات النفط الذي كان حجم استخراجه يزداد من آبار الشرق الأوسط التي لا تدانيها آبار... لم يكن العرب قد بلغوا قط هذا الحال من التحجير بعضهم بسبب تكرار الهزائم العسكرية على نحو يدعو الى اليأس والبعض الآخر بسبب المكاسب المتنوعة التي كان يوفرها لهم التحالف الوثيق مع الاقتصاد الغربي.

لكن الافراط كما يقول شرايبر في المهانـة سيـولـد الصاعقة، والصاعقة ـ كما يقول الكاتب ـ كانت ثورة الفاتـح مـن سبتمبر التي قلبـت المائـدة على الشركـات الاحتكارية النفطية وشنت عليها أول هجوم جعل بقية أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط تلحق بهذا الهجوم الليبي وتطالب بحقها في نفطها .

ويسوق الكاتب نماذج مـن مظـاهـر الاختنـاق التي تشهدها المجتمعات الأوروبية واليابان وامريكا ويتساءل عن المخرج من هذه الدائرة السوداء التي ينداح فيها العالم ويورد ما قاله جان جوريس :

« نحن لا نزال بعد في عصر ما قبل التاريخ، والتاريخ البشري لن يبدأ حقـاً الا حين يهيمـن الانسـان بعقلـه وارادته على عملية الانتاج نفسهـا بعـد أن يفلـت مـن طغيان القوى غير الواعية .ولسوف يكون هذا في بزوغ الحياة المتألقة والحرة للانسـانيـة التي ستتملـك الكـون بفضل العلم والعمل والحلم » .



15 ـ متحف الحاضر

نحن نستغرب ما لا نعرفه . . ويقولون الإنسان عـدو لما يجهل . وقد نرسم صورة كبيرة لبلد ما ونتخيل أن شعبـه يتصرف بطريقة ما ، وأن تلك البلاد لها قيم غريبة وسلـوك شـاذ يحرك شعبها ، إلى آخر مثـل تلـك التصــورات والخيالات لكننا عندما نقف على تلك البلدان ونعايش شعبها سنكتشف أشياء كثيرة . . . قد تكون مختلفة عما تعودنا عليه ولكـن ليس بـالضرورة أن تكـون أشيـاء مستهجنة أو تستحق أن نعاديها .

هناك شعوب تقاد من بطونها ، وهي تلك الشعوب الاكولة التي تقضي يومها في سبيل ملء البطن . ويأخذ المجتمع طابع الاستهلاك ، فالـزراعـة والصنـاعـة بـل والشكل المعماري للبلاد مهندس بشكل استهلاك حيث تنتشر المطاعم والمقاهي ومتاجر الأغذية .

وقد يفاجأ المرء عندما يجد شعباً يعيش في معبد كبير

ففي الهند تتداخل الأسطورة مع سلوكيات العبادة وتصبح جزءاً من الحياة اليومية لأهل الهند، ومن الصعب أن توجد فوارق بين الحاضر وبين التاريخ. كل هذا أدى الى ثقافة قدرية خاضعة فالهندوس لا يناقشون التركيبات الاجتماعية ولا يعملون على تغييرها ولكنهم يقدسونها ويعبدونها كجزء من الميراث الديني الذي لا يرى الهنود دافعاً لرفضه أو تغييره، فبرغم الصراعات السياسية والفكرية التي لم تتوقف يوماً في الهند فان الاسطورة تبقى هي الزعيم الاول والاكبر والذي يحرص الزعماء على اتباعه والخضوع له لأنهم في ظله يحققون أهدافهم.

وقد لا يصدق المرء أن اليابان التي تكاد أن تقفز متجاوزة حدود القرن العشرين وأن تخترق بأصابعها العلمية والتقنية صندوق العصر الذي نعيش فيه لتبني أساسيات القرن الحادي والعشرين قد لا يصدق المرء أن هذه اليابان تعيش في نفس الوقت في عصور ما قبل الميلاد.

فالبيت الياباني مزدوج الشخصية والمجتمع الياباني كله كذلك والفرد الياباني أيضاً.

فالعلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، والأب والابن، ومكانة الاقارب والجيران كلها مستمدة من الفلسفات اليابانية القديمة جداً. فالمرأة اليابانية التي تعمل في المصانع وتدير المشروعات الكبرى، والعاملة التي تغذي العقل الآلي؛ هذه المرأة تتحول إلى خادم مطيع لزوجها بل تتحول إلى مسخ ينفذ كل إشارات الرجل ولا تقف عند هذا الحد بل أن المرأة اليابانية في بعض المناطق تقوم بعبادة زوجها ولا ترفض له طلباً وتنفذ جميع أوامره بما في ذلك أمر قتل نفسها مثلا.

وفي الصين... تسود الحكمة أو رؤيا الحكمة فالصينيون يميلون ميلاً مطلقاً الى تقديس كل شيء واضفاء كثير من الغيبية عليه وسرعان ما ينتقل الفرد المهني من أحدث المصانع أو المزارع ليعيش حالة ما ورائية أقرب الى الشعوذة أو السذاجة.

والشعوب الآسيوية بصفة عامة، شعوب تقدس ماضيها ومنها من يمارس عبادة الأجداد ويتخذ من الشعوذة والخرافات شرائع يحتكم إليها. وقد شكلت هذه العقائد النفسية والشخصية الآسيوية فهي نفسية

تحرص على أخذ كل شيء ولكنها لا تتردد في التنازل أو التضحية به في لحظات الخطر والتحدي وهذا ما ولد الروح القتالية الانتحارية في اليابان والصين وفيتنام وعدد من الدول الآسيوية الأخرى.

ولكن نجد في الاماكن التي وصلها الاسلام في آسيا قد ولدت عقلية جديدة وحضارة جديدة أثرت حتى في أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام، لأن الإسلام ينطلق من التوازن والتكامل فهو دين العينية والماورائية فالايمان بالغيب قاعدة أساسية بالنسبة للمسلم... ولكن العقل أيضاً شرط أساسي في تكوينه... وقد أثر الإسلام تأثيراً بالغاً في الشعوب الآسيوية ليس لأنه فقط دين الفطرة ولكنه دين التوازن الذي يوجد الشخصية السوية غير المرتبكة.

ففي الهند مثلا نجد أن الطائفة الإسلامية لا تحتكر مجالاً معيناً ولا توقف نشاطها في حقل واحد مثلما الطوائف الأخرى، ولكننا نجد أفرادها مبثوثين في كل المجالات وحتى حجم أجسادهم يتصف بالاعتدال فهم ليسوا مثل النباتيين الذين يعانون ضعفاً جسدياً شديداً

يؤدي الى الهزل والموت وليسوا مثل بعض الطوائف من سكان المناطق النهرية الأكولة والموصوفة بـالضخـامـة والسمنة والخمول .

ومثلما تكون الشعـوب تكـون ابـداعـاتها وفنونها ، وهكذا فنون آسيا التي تجمـع بين القـدريـة وتقـديس الماضي والتسليم بقدرة الكائنـات الخرافيـة والاستسلام للأساطير .

واذا كان لكل أمة دين ، فـان ديـانـات آسيـا هـي الأساطير . وما نسميه بالبوذية والهندوسية وكل الديانات الآسيوية هي مجرد أساطير نمقت ورتبت وتم ربطها في سياق عام وألبست ثوب التقديس ، ولكن برغم كل ذلك لم تستطع أن تكبر عن كونها خـرافـة يتعلـق بها آلاف الملايين .



16 ـ تحدي المعرفة

سجل الحضارات كبير ومتنوع فللشرق حضاراته وللغرب أيضاً ولكل حضارة قيمها وملامحها وقواعدها . . . ولكن الحضارات كلها قديمها وحديثها تتفق في شيء واحد وهو دافع قيامها ووجودها .

التحدي . . . كان دائماً هو ذلك المعول المقدس الذي يبني الحضارات . فيه يبدع المبدعون ، وبقوته تنطلق الأمم تخوض أركان السكون وتندفع في تأسيس مجتمع عتيد يواجه الخطر الذي يحاصر الامة من الخارج ويلبي طموحاتها التي تنبعث من الوجدان العام . . . واذا انخفضت حدة التحدي تواكلت الامة ودبّ بين جوانبها الاتكال والدعة فتهاوت من الداخل وسهل دكها من الخارج . . . وقد يكون مرد ذلك كله الى جهل الامة بما يدور خارجها أو فقدانها لمحور الفعل والخلق فالعرب في الجاهلية كانوا قبائل لا مركز حضارياً لهم ، كانوا

منساقين الى الركض وراء ضرورات الحياة اليومية في حين كان الفـرس والرومـان مـن حـولهم يعيشـون في امبراطوريات قوية عاتية ، وكانوا يعتبرون الأرض العربية مجالاً حيوياً لهم يتطلعون نحوه بشكل يومي الى أن جاء الإسلام وأجاب على التحديات الاساسية والشاملـة التي تواجه العرب والبشرية كلها ، فتغيرت كل المقاييس فجـأة وحرق العرب جميع المراحل وقفزوا مباشرة من حالة التشتت القبلي البدوي الى حالة الحضارة والدولة القوية التي اجتاحت في سنوات معدودة آلاف ألأميال وامتدت الامبراطورية العربية الاسلامية من شبه جزيرة ايبريا على شواطىء المحيط الاطلسي وحتى جبـال هنـدكـوش في آسيـا، في حين كـانـت أوروبـا تعيش حـالـة تـردي واضطراب اجتماعي وسياسي وفكري في القرون الوسطى ، كانت هناك في الشرق حضارات في الصين وفي الهند واليابان وفي الوطن العربي ولكن في حين أدركت أوروبا حجم الخطر الذي يسودها في الداخل وحجم التحدي الخارجي لم تكن الحضارات الاخرى تدرك ما يدور في داخلها أو من حولها . . . وكان من بين هذه الحضارات

من يجهل جهلاً كاملاً الثورة العالمية التي بدأت تترعرع في أوروبا ، ففي حين كـان البخـار يبـدأ مسيرتـه كقـوة محركة في بقاع شتى من أوروبا كان امبراطور الصين يظن أن حدود العالم هي حدود الصين ـ وفي عام 1793 خاطب امبراطور الصين شيان لنغ ملك بريطانيا جورج الثالث رداً على الوفد الذي أرسله الملك البريطاني الى امبراطور الصين بقوله :

أنك تعيش أيها الملك وراء بحار عـديـدة الا أنـك أرسلت وفداً يحمل مذكـرتـك الرسميـة بكـل احترام تدفعك الى ذلك رغبتك المتواضعـة في الاستفـادة مـن منافع حضارتنا ولكي نتبين اخلاصك فقد قمت أيضاً بارسال هبات من محصول بلادك .

ورفض الامبراطور الصيني أي علاقات مع أوروبا قائلاً :

لقد تقت أيها الملك لبركات حضارتنا من بعيد : وقد سبق أن أشرت إلى ما في خضوعكم من تبجيل ، وبالنسبـة للتجارة تمتلك امبراطوريتنا السماوية كل شيء بوفرة ولا تحتاج إلى أي إنتاج ضمن حدودها ، فلا حاجـة بها اذن للاستيراد من منتجات البرابـرة خـارجهـا بديلاً عـن

محاصيلنا ، ولكن بما أن الشاي والحرير الصيني مما تنتجه امبراطوريتنا السماوية هي ضرورات قصوى للامم الاوروبية ولكم لذا فقد سمحنا تكرماً باقامة مؤسسات تجارية أجنبية في كانتون لسد حاجاتكم ولتستفيد بلادكم من خيراتنا .

هذه اللغة الواثقة المتعالية التي خاطب بها الامبراطور الصيني مبعوث الملك الانجليزي تنم عن اعتزاز وطني كبير وهذا جانب ايجابي أهلته حضارته أن ينطق به ولكن الجانب السلبي للامبراطور هو اعتقاده بأنه يعيش في حدود امبراطورية تقف القوة السماوية وراءها وأن الذين خارجها هم جماعات من الجهلة ، في حين كانت أوروبا وعلى رأسها بريطانيا تعد العدة لاستعمار الصين وغيرها من أوطان الشرق .

لقد انتزع هنا عامل التحدي الداخلي ، فالصين في عهد الامبراطور شيان لنغ كانت مكتفية ذاتياً من كل شيء ولكنها لم تدرك خطورة التحدي الذي يواجه الصين من الخارج وبالذات من أوروبا . . . وقد ناقش بيتروورسلي ذلك قائلاً : ان مجتمعاً اعتقد بأنه ما دامت

هنالك شمس واحدة في السماء فلا يمكن أن يكون هناك أكثر من قوة واحدة عليا على سطح الارض هذا المجتمع كان يصعب عليه أن يدرك أن الشياطين الاجانب الدنيئين المتعاملين بالأفيون كانوا يمثلون قوة أكبر بكثير من الصين في فترة حرب الأفيون... حيث كان الاعتقاد شائعاً في الصين بأن الاجانب وخاصة الانجليز سيموتون من الامساك اذا حجب عنهم الراوند .

ولكن الاوروبيين غزوا الصين بسبب ذلك العامل كما ذكرنا وهو جهل أهلها بحقيقة التحدي الخارجي وكان ذلك الجهل هو السلاح القوي الذي اعتمده الاوروبيون في قهر حضارات كبيرة في العالم مثل الحضارات التي قامت في افريقيا وحضارات سكان استراليا الاصليين وحضارات امريكا الجنوبية .

والشعوب عندما تعي التحدي وتستنفر قوتها تستطيع أن تواجه وأن تبدع وأن تبني فالصين قاومت فيما بعد الاستعمار البريطاني ومن بعده الياباني واستطاعت هزيمتها وكذلك الهند استطاعت أن تستثمر تراثها وطقوسها في

حرب صامتة ضد الانجليز وتحول غاندي من مومياء تتحرك الى قائد يقاتل بهدوء.

وقديماً قالوا: أعرف نفسك ـ وحـديثـاً يقـولـون أعرف عدوك.

17 ـ قوة الأمل

عصرنا هو الدائرة الزمنية التي نعيش فيها وتمتد من ماضٍ قريب نحدده الى مستقبل منظور يمكن قراءة ملامحه، هذا العصر يشكل حقبة فريدة، لم يشهد لها التاريخ الانساني مثيلاً فيما سلف فهو عصر المتناقضات الشديدة. عصر الوفرة والحرمان، عصر الحياة والموت، وهو في ذات الوقت عصر الأمل وعصر اليأس.

العلماء عبروا عن انزعاجهم الشديد من النقص المتزايد في المواد الاساسية نتيجة الاستهلاك المتصاعد ونقص الموارد والافراط في امتصاص الطبيعة.

استهلاك الحديد والصلب تضاعف مئات المرات منذ بداية هذا القرن وكذلك النحاس والمنجنيز والكروم... وغيرها من المواد.. الاستهلاك المخيف في مواد المحروقات، وفي المياه وفي الهواء أيضاً.

هذا التصعيد الشديد في الاستهلاك خلق ازمتين

أولاهما نقص المواد الأولية، التي لا تزيد مما يجعل الأجيال القادمة مهددة بالموت.

والازمة الثانية، هي أزمة النفايات أو التخلص من البقايا فالبحار والمحيطات مهددة بتلوث يقضي على ما فيها من حياة والهواء مهدد بتلوث سيؤثر على البشر، ويؤدي الى أمراض خطيرة.

تلك مظاهر وآثار الخطر الذي يمثله التقدم على الطبيعة، ولكنه يمثل خطراً في نفس الوقت على البشر، أي على الذين أبدعوا التقدم منتظرين تحقيق مكاسب للانسانية، ولكن مردوده كان تهديد البشر والطبيعة.

في السنوات الاخيرة ظهرت مدارس وأبحاث عديدة تنبه الى الخطر القادم، وتشير باصابع الانذار الى الحقبة المتفجرة القادمة التي تكمن في أحشاء ما نسميه بالتقدم التقني.

الكاتب ايريك فروم، حدد ملمحاً من ملامح خطورة مجتمع الاستهلاك، أي المجتمع الرأسمالي على حرية الانسان ووجوده. يقول فروم في كتابه ثورة الأمل:

« ان الثورة الصناعية الثانية تحل الآن محل الثورة الصناعية الاولى . . . وهي تتميز ليس بأن الطاقة الحيوية تستبدل فيها بالطاقة المكنية فحسب . . . بل وبأن الفكر البشري يستبدل فيها بفكر الآلات اذ تجعل الاحيائية الآلية والتسيير الآلي . . . ومن الممكن بناء الآلات التي تعمل بدقة اكبر وبصورة اسرع كثيراً من الدماغ البشري عندما يعني الامر الاجابة على مسائل هامة في التقنية والتنظيم . . . وهذه العقلية الآلية تفتح المجال لامكانية نوع جديد من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فقد أصبح عدد المشاريع العملاقة مركزاً للجهاز الاقتصادي الذي سوف تحكمه تماماً في المستقبل القريب . . . ان المشروع على الرغم من كونه شرعياً ملك مئات من ألوف المساهمين، يدار بالنسبة لجميع الاهداف العلمية بصورة مستقلة عن المالكين الشرعيين من قبل بيروقراطية تؤبد نفسها بنفسها . . . ويضيف فروم بأن التحالف بين الاعمال الخاصة والحكومة قد غدا وثيقاً الى حد أن طرفي هذا التحالف لم يكن أحدهما في أي وقت مضى أقل تميزاً عن الآخر منه الآن، وهذا

التحالف بين الحكومات والمشروعات الاقتصادية كما يصوره فروم يشكل مظهرَ استلابِ خطير لكل من له علاقة بالمشروع الاقتصادي، فالادارة البيروقراطية تصبح خاملة مؤبدة، لأنها تتوقف عن القيام بأي نشاط ابداعي اداري، وتستسلم للآلة في الادارة مثلما تستسلم لها في حركة الانتاج، وأصحاب المشروع يصبحون حلفاء للحكومة ومستعبدين لها.

وهذا الواقع الكئيب، الذي ينذر بمستقبل مخيف أفرز عدداً من الكتاب، يمكن تسميتهم بكتّاب الأمل، ومن بينهم ايريك فروم، صاحب كتاب ثورة الامل، وروجيه غارودي صاحب كتاب مشروع الأمل، وكلهم يصورون ويناقشون خارطة الواقع الذي تعيشه الانسانية، حيث تقوم الرأسمالية باهدار الامكانيات الطبيعية في سبيل اشباع رغباتها في الترف والسيطرة ويعبر الكُتّاب عن حلمهم بمستقبل تسيطر فيه الانسانية على ثرواتها بحيث تسخّر الموارد الطبيعية لاشباع الحاجات الانسانية والحد من الاندفاع نحو الاستهلاك الذي يؤدي الى كارثتين محدقتين، وهما نفاذ الموارد الطبيعية الثابتة والمحدودة، وتشويه البيئة والانسان.

18 ـ أعذب الشعر

أعـــرف يـــا حبيبتي
أن دم الثـــــــوار
يضـج في أوردة النهـار
عـلى جبـال المـوت
ولتهـــد الســكـين
وليـــترف الشـريـان
خبـــزاً ويـــاسمين

« سميح القاسم »

مركب الثورة العظيم، هو سفينة نوح العصر تحمل من كل حرف زوجين اثنين في رحلة انعتاق الانسان والحرف، ولا تبقـي للسلاطين سـوى حـروف الكسر والجر. . . وتتهاوى العبارة التي علقهـا السلاطين فـوق دواوينهم الضخمة تلك العبارة التي كتبها لهم تنابلتهم بخط كوفي مذهب.

« أعذب الشعر أكذبه »

وفي أوسط الركود والقبول تصرخ الحروف:

« لنوقد النيران على جبال الموت »

والحروف عندما تشعل حرائقها، فانها تشعل نار الزلزال حيث تتقد الحجارة والماء وتخرج الأرض أثقالها. في عام 1952 م . . . في حلقة الخنوع وقف محمد مهدي الجواهري وأطلق حروفه صفارات ايقاظ واذا بتلك الحروف تتحول الى حجرها الغبن والعسف الملكي الذي كان يحكم العراق أطلق الشاعر سيلا من رصاص الحرف على الطاغية فشرّح نظامه وكشف أصابعه التي تلتف حول الرقاب وأطلق حروفه براكين ضوء جعلت الشعب وجهاً لوجه أمام نفسه.

ما تشاؤون فاصنعوا	لكم الأرض أجمع
لكم الناس أكتع	من ذويهم وأبصع
خول عندكم خذوا	من تشاؤون أو دعوا
قد خلقتم لتحصدوا	وعبيداً ليزرعوا
ما تشاؤون فاصنعوا	الجماهير هطع
ما الذي يستطيعه	مستضامون جوع

في روح الشاعر وعقله تكبر الحروف، وتمتلىء...
وتنهال زخات حياة تنطلق من وسط أكوام الموت
وضباب القمع الذي تنشره أيدي السلاطين، وأدوات
القمع التي تحتكرها قوى التحكم والاستغلال والتسلط
مكرسة تغييب الجماهير بالقمع والتخويف والتجويع...
ولهذا فان الحرف على رأس قائمة المطلوبين وهو متهم
بأنه ارهابي، ومحرّض ومتآمر... ويعلن السلاطين عن
مكافأة خيالية لمن يحضره ميتاً... فهم لا يستطيعون
مقابلته حياً حتى تحت القبض.

لماذا، لماذا هذا العداء الاستراتيجي بين الحرف
والسلطان؟ يجيب على هذا السؤال الشاعر ممدوح
عدوان. يقول عدوان في مقدمة ديوانه «لا بد بين
التفاصيل»:

«نفتح عيوننا منذ البدء على عالم مرتب محسوم
توزعت فيه الوظائف وتحددت فيه المصالح عالم فيه
لصوص ومسروقون، جلادون وضحايا، أثرياء وبؤساء،
مستغِلون ومستغَلون، عالم فيه من يستفيد منه ومن يرزح
تحته... ولذلك فإن البشر منقسمون إلى طائفتين...
طائفة تريد الإبقاء على العالم كما هو لأنها مستفيدة من

صورته هذه أو لأنها متفردة منها، أو لأنها لا تشعر حجم الضرر اللاحق بها فيه، وطائفة تريد تغيير هذا العالم وقلب موازينه وموائده وإعادة ترتيبه والشاعر منتم، حتماً، إلى إحدى الطائفتين... اما أنه طامح إلى تغيير العالم واما أنه مساهم في تكريسه».

الشاعر المناضل يحمل الحرف، والحرف يحمله في معركة الانعتاق والتغيير يخوضان مع الملايين معركة التغيير ويحرقان في لظى الانفجار الانساني الكبير كل أدوات العسف، وينسفان تلك القواعد التي كرستها سنون من مسخ الإنسان وتشويه الحرف.

وعندما تسود الرشوة الفكرية والاجتماعية والسياسية يخرج الحرف نتوءاً معاً يتحد مع وعي الاديب الكاتب والشاعر، يمارسان فعل الكشف الشامل وتنطلق الكلمات تكتسح الطقوس التي تكرس تقاليد واعراف الخضوع.

19 ـ الشعوذة ـ مذاهب

في الفلبين يتحدثون عن طبيب أسطوري اسمه « اليكس » ويقولون أن هذا العالِم الفاهم يعالج الامراض المستعصية في ثوان، فيمر باصبعه على بطن المريض فتفتح دون تخدير أو استخدام أي أداة ويستأصل ما يريد استئصاله من داخل المعدة، ويمرر يده مرة أخرى فوق الجزء المفتوح من جسم المريض فيعود كما كان وفي ثوان أيضاً دون استخدام خيط أو لاصق أو مشرط.

وطار مئات المرضى اليه من كل اصقاع الأرض يحملون الأموال والامل في الشفاء على يدي أسطورة العصر أو المسيح الجديد الذي ظهر ومعه معجزاته في الفلبين هذه المرة وفي القرن العشرين، واستنفر الصحفيون أقلامهم وأطلقوا لها العنان في وصف خوارق هذا الفلبيني الشاب.

وقالوا أن هذا الطبيب الساحر يستأصل الزوائد في 10 ثوانٍ ويشفي الروماتيزم بحركة سريعة لا يدركها حتى المريض، ويستخرج الحصى من كل مرضاه قبل أن يرتد إليهم طرفهم، ويعالج العقم وتصلب الشرايين وكل ما استعصى من الأمراض.

العلماء وعلى رأسهم الاطباء في الفلبين وخارجها هم أيضاً أعلنوا الطوارىء بين صفوفهم لمواجهة هذا الاكتساح الشامل والسريع لنظرياتهم وأساليبهم في التشخيص والعلاج فراحوا يناقشون تلك الظاهرة التي سرعان ما انتشرت واتسعت حتى صار عدد الذين يمارسونها أكثر من عشرة أشخاص. العلماء والاطباء من الشرق والغرب قالوا أن ذلك يشكل ظاهرة جديدة ومثيرة تستحق الاهتمام والدراسة والتحليل وذهب بعضهم الى الفليبين لدراسة تلك الظاهرة.

وقد تبين أن (اليكس) هذا ومن معه ليسوا سوى دجالين مشعوذين وأنهم يعتمدون على السرعة في حركة الايدي ويخدعون المرضى بالتأثير النفسي وبايهامهم بالشفاء. وقد اكتشفت مؤخراً حقيقة هؤلاء الدجالين

الذين يطلقون على أنفسهم الجراحين الصوفيين .

وبرغم اكتشاف حقيقة هؤلاء والاعلان بأنهم مشعوذون محتالون الا أن الآلاف لا زالت تتدفق الى معابدهم وبيتهم بحثاً عن الشفاء، وقصة الإنسان مع الشعوذة والاحتيال والدجل قصة طويلة فقد شهد التاريخ عدداً من الكهنة الذين يتحكمون في أجساد الناس وعقولهم بالاوهام والخرافات وكونوا نفوذاً واسعاً بين صفوف الناس بحجة أنهم يمتلكون قوة روحية خارقة تمكنهم من تحقيق المعجزات وهذا يعطيهم الحق في الارتفاع فوق مستوى البشر فيفرضون الضرائب على الناس ولا يمتلك العامة الا أن يدينوا لهم بالولاء والطاعة والامتثال .

ومثلما هناك شعوذة روحية ودينية فان هناك شعوذة اجتماعية وشعوذة سياسية وفنية .

فالربا الذي كان التاجر اليهودي يمارسه عبر التاريخ هو ضرب من الشعوذة الاقتصادية، فهو يوهم المحتاج بأنه من الممكن أن يأكل الكعكة وأن يحتفظ بها في نفس الوقت، والمرابي ليس هو ذلك الرجل الذي يقرض

الآخرين مقابل زيادة المبلغ عند التسديد ولكنه يفعل ذلك ويقنع الآخرين بأنهم هم المستفيدون . ومن الشعوذة الاقتصادية ما يقدمه رب العمل أو صاحب رأس المال من هبات وصدقات الى العاملين معه فهو يقدم لهم أموالهم على أنها هبة منه ويعمل على اقناعهم بأن ذلك حقيقة .

وللشعوذة السياسية تاريخ طويل بل أن هذا التاريخ يمتد الى ما قبل التاريخ ، وقد كانت نظرية التفويض الإلهي تطويراً ظاهرياً بل مجرد تطوير لفظي للشعوذة السياسية فالملك ـ وفقاً لتلك النظرية ـ له قدرات عقلية خارقة لا تتوفر في سواه وهذه القدرات العقلية أودعها الله فيه ليستطيع حكم البشرية في دائرةمملكته وأنه يحمل تفويضاً سماوياً بالحكم .

وكثيرون منا يذكرون إمام اليمن الذي كان يغطي جسده بالفسفور ويظهر على الناس فجأة ثم يختفي فجأة ليوهمهم بأنه كان في حالة تجلي وتوقد لأنه في تلك اللحظات كان على اتصال مباشر بالله . . .

وبعض سلاطين الهند القدامى كانوا يشردون

بأذهانهم ساعات أمام رعاياهم في حين ينطلق عملاؤهم وأتباعهم بين صفوف المجاميع البشرية يطالبونهم بالتفرغ الى الآلهة لأن السلطان في حالة توحد معها وهكذا تبلغ الشعوذة أشدها عبر التوسل والتضرع للسلطان عبر الآلهة وليس العكس.

واذا كان المشعوذون في الفليبين يعتمدون على براءة وجوههم التي توحي للمرضى بأن لهم علاقة بعالم الأرواح ويعتمدون أيضاً على حركة أيديهم فان المشعوذين الآخرين، يمررون دجلهم ويعيشون عليه تسندهم قوة عاتية أولها سذاجة الشعوب.



20 ـ الشاعر ـ والأمة

الشعراء الحقيقيون هم وجدان الأمم، وهم قرنا الاستشعار لها، هم الفرقة الاستطلاعية المتقدمة التي تكتشف توجهاتها وترسم طموحاتها . . . فالشاعر يمتلك أداة خاصة للتعبير، هي أداة اللغة وهو متمكن من فن التصوير وله قدرة الرسم والتصوير بالكلمات .

فالشاعر قد يفيض اعتزازاً بمجد أمته، ويعبر عن طموحها وتوقدها وقد يتحول الى ناقد لممارساتها، ويمارس دور التحريض والنقد الذاتي الشامل بصوت مرتفع رقيق أو عنيف، وقد يشتط الشاعر فيهجو أمته مثلما يهجو معارضيه، وقديماً هجا الحطيئة نفسه . . . ولكن بين المنطقين يوجد أيضاً شاعر آخر، هو وجدان المجتمع العاقل العميق، فالتغزل المفرط في الذات قد يكون بمثابة الرشوة الذاتية أو المسكن السلبي الذي لا يقترب من الصدق ويجافي الحقيقة، فالأمة ترتكز على

ماض تمد فيه جذورها ، وتمتص منه عصير القوة والحياة، وتنظر بعين الحقيقة الى واقعها وتشخصه بحدة العقل والضمير وتنطلق نحو المستقبل برؤية فاحصة محللة وعلى ضوء ذلك كله تحدد ايقاع حركتها ومواقع فعلها .

في قصيدة للشاعر ايليا أبو ماضي، يناقش حال الامة العربية ويمزج التاريخ بالامل في بناء عمودي تقليدي ، وبمضمون معتاد .

يقول أبو ماضي : -

اذا الامس لم يرجع فان لنا غداً
نضيء به الدنيا ونملأها حمدا
وتلبسنا في الليل آفاقه سنا
وتنشرنا في الفجر انسامه ندا
فان نفوس العرب كالشهب تنطوي
وتخفى ، ولكن ليس تبلى ولا تصدا
ومثل اللآلىء لا يخيس جمالها
وان هي لم تصف ولم تنظم عقدا
اذا اختلفت رأياً فما اختلفت هوى
أو افترقت سعياً فما افترقت قصدا

ومنذ نكسة 1967 م ظهر ضرب جديد من الأدب العربي، قد نشتط ونصفه بأدب الشماتة في الذات، أو أدب لطم الخدود. ومنه ذلك الشعر الذي انهمر في وجدانيات نزار قباني، ووصل الى حد توبيخ الشخصية العربية ولكن في بعض السلبيات ايجابيات، فذلك الشعر جاء ردة فعل عنيفة لحالة الغرور أو الاعتزاز غير الموضوعي والمبالغ فيه... ولكن الشعر كثيراً ما ناقش حقيقة الواقع العربي وتسمرت الحروف فوق مكامن الضعف فكشفتها. يقول الشاعر اليمني عبدالله البردوني:

حكامنا ان تصدوا للحمي اقتحموا
وان تصدى له المستعمر انسحبوا

هم يفرشون لجيش الغزو أعينهم
ويدعون وثوباً قبل أن يثبوا

الحاكمون و[واشنطن] حكومتهم
واللامعون وما شعّوا ولا غربوا

القاتلون نبوغ الشعب ترضية
للمعتدين وما أجدتهم القرب

لهـــم شمـوخ المثنـــى ظـــاهــراً ولهـــم
هـوى الى (بـابـــك الخرمـــي) ينتســـب
مـاذا جـرى يـا أبـا تمام هـل كـــذبـــت
احسـابنـا أو تنـاسى عــرقــه الذهـــب
عــــروبـــة اليـــوم أخـــرى لا ينم على
وجـــودهـــا اسم ولا لـــون ولا لقــــب
تسعـون ألفـــاً [لعمـــوريـــة] اتقـــدوا
وللمنجـــم قـــالـــوا : اننـــا الشهـــب
قيل : انتظـار قطـاف الكـرم مـا انتظـروا
نضـج العنـاقيـد لكـن قبلهـا التهبـوا
واليـوم تسعـون مليـــونـــاً ومـــا بلغـــوا
نضجـــاً وقـــد عصر الزيتـــون والعنـــب
تنسى الرؤوس العـــــوالي نــــــار نخوتها
اذا امتطـــاهـــا الى أسيـــاده الذنــــب

في هذه القصيدة التي يرد بها البردوني على قصيدة أبي تمام في فتح عمورية مـارس البردوني اسلـوب الكشـف الفاضح ، والتحريض ، فتألق شعراً وقومية وثورة .

ومن الكتاب الذين انتهجـوا أسلـوب الشماتـة الحاد

الكاتب الاديب محمد الماغوط في مقالاته ومسرحيـاتـه، فقد تعرض للواقع العربي بشكل سافر، قد يكون مؤلماً، ولكنه ذلك الألم المحرّض والمثير. وكذلك الشاعر نـزار قباني في عروبياته التي يهجو فيها أولئك الذين أوصلوا العرب الى الواقع الذي وصلوا اليه وخاطب فيها المتنبي مثلما خاطب البردوني أبا تمام.

وكل يوم يولد من صلب الوطن شاعر، وفي عمق جرحه تزرع ملايين البذور الواعدة التي تنبىء بأن الحرية قادمة، وأن مدى الأغلال تنحسر مثلما يكبر الوطن يكبر الشعر وتقوى الكلمات ويشتد بأس الحروف، وذلك ما عبر عنه الشاعر عبدالوهـاب البيـاتي حين قـال مخاطبـاً إخوانه الشعراء:

يا أخوتي: الحياة أغنية جميلة
وأجمل الأشياء:
ما هو آت، ما وراء الليل من ضياء
ومن مسرات ومن هناء
وأجمل الغناء
ما كان في قلوبكم ينبع من أعماق

شعوبنا الراسخة الاعراق
وأرضنا الطيبة الخضراء
فلتلعنوا الظلام
وصانع المأساة والآلام
ولتمسحوا الدموع
ولتوقدوا الشموع
في وحشة الطريق للانسان
يا أخوتي: الحياة
أغنية جميلة مطلعها الدموع والأحزان

21 ـ مسافات الحب ومسافات الشعر

الجمال من القيم المطلقة التي استحوذت على الفكر والوجود الانساني منذ بداية نضجه، وتفرّع من هذه القيمة عدد من القيم وبرزت لها ميادين شتى مثل الفنون.

فالفن شكل من أشكال التعبير عن الجمال...

والغزل كان عند العرب قناة جمالية كتبوا من خلاله بالشعر أحاسيس إنسانية رائعة، وبقي الغزل عند العرب قيمة إنسانية خالدة لا تكاد تجاريهم فيه أمة أخرى.

وعندما نقرأ شعر الغزل عند العرب نتحسس بين حروفه قوة الالتصاق بين الأحبة وتداخل الذوات الى حد يلغي التفرد والانانية... واذا كان بعض الفلاسفة المحدثين يعرفون الحب بأنه تلاشي الأنا في الأنت وولادة حالة نحنونية تعني قمة السمو الانساني فان هذه الحالة نجدها مجسدة في أشعار العديد من جهابذة الشعر العربي في الجاهلية وبعدها. والحب العذري الذي هو ابداع وقيمة

عربية يعبّر عن سمو خاص قد لا يستطيعه الكثيرون .

والعربي عندما يحب ويعشق يضع تعابيره الخاصة ويشيد علاقات من الشفافية لا تلغي المعاني والقيم الاجتماعية العظيمة التي يعتز بها التراث العربي .

فالكرم، عندما يتصل بالحب يصبح له معنى أكبر من السخاء أو العطاء وكذلك الشجاعة والاقدام والفخر، كل تلك القيم العربية العظيمة تشحن بمضامين أكبر عندما ترتبط بالحبيب .

يقول امرؤ القيس :

ألا ربّ يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجلِ
ويوم عقرت للعذارى مطيّتي
فيا عجبا من كورها المتحمّل
فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقــول وقــد مــال الغبيــط بنــا معــاً

عقــرت بعيري يــا امـرأ القيس فــانــزل

فقلت لها سيري وارخي زمامه

ولا تبعــدني مــن جنــاك المعلــل

في هذه الابيات التصويـريـة البليغـة تتـداخـل قيم ومفاهيم شتى ويعجن فيها الحب بالشجن والكرم والشهامة العـربيـة ونلمس في هـذا الحوار العـاطفـي العفـة والرجولة... بل نرى فيه صوراً مـن صـور الانسـان العربي في حالة تألق وجداني فريد.

والوصف في الشعر العربي ـ لون من ألوان الغزل وفي هذا الضرب من الشعر أيضاً يظهر التفرد العربي في تصوير الحبيب. يقول الأعشى في وصف حبيبته:

مـا روضـة مــن ريــاض الحزن معشبـة

خضراء جــاد عليهــا مسبــل هطــل

يضـاحـك الشمس منهـا كـوكـب شرق

مــؤزّر بعميم النبـــت مكتهــل

يــومــاً بــأطيــب منهــا نشر رائحــة

ولا بــأحســن منهــا اذا دنــا الأصــل

وملامح الجمال الشعري هنا لا تقف عند حد الاستعارة من الطبيعة لوصف الحبيب بل يرتفع المحبوب الى ما هو أسمى ، فهذا المدخل التقليدي لوصف الحبيب يصبح سامياً وراقياً عندما يسمو الحبيب في مظهره فوق الطبيعة ذاتها .

والشعر عند العرب ليس مجرد تقرير عاطفي بل هو موقف ذاتي أو موضوعي شامل فالشاعر يجد نفسه ويكتشفها ويكاشفها في حضرة محبوبه ، ليس الحضرة المادية ولكن بان يغمر نفسه في ذات محبوبه فيقدم نفسه كما هي . وعنترة بن شداد يرسم صورة بليغة لنفسه ولسلوكه وكيانه في الحضرة الشعرية لمحبوبته في معلقته حيث يقول :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي
وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي
اثني عليّ بما علمت فانني
سمح مخالطتي اذا لم أظلم
واذا ظلمت فان ظلمي باسل
مرّ مذاقته كطعم العلقم

وفي أغلب المعلقـات نجد هـذا النسـق مـن الحوار الشامل مع الحبيب والبيئة والذات وتزول المسافات بين الاماكن والمواقع والاقوام والأشخاص .

والغزل عنـد العـرب نهر نفسي يشـع جمالاً وعمقـاً وانسانية ويحوي فلسفة حب عميقة لا تقلل من قيمتها شدّة الكلمات التي يستخدمها الشاعر فالكلمات الضخمة تغدو شفافة رقيقة عندما ترسم بها صورة الحبيب .



22 ـ إيقاع التوازن

التوازن، قانون طبيعي وانساني فهو يحكم العلاقات بين الناس والأشياء مثله مثل مجمل القوانين الكونية الأخرى . وإذااختلت التوازنات الطبيعية حدث الارتباك الذي يؤدي الى الكوارث .

الزلازل، تحدث نتيجة الاختلالات في القشرة الأرضية والعواصف تهب عندما يفقد الضغط الجوي توازنه،أي حين يحل التخلخل في منطقة فيتسبب فيما يعرف جغرافياً (بالرهو) فيندفع الهواء بقوة الفراغ فتحدث العاصفة .

والانسان أشد الكائنات تأثراً بهذا التوازن . . . سواء من الناحية البيولوجية أو من الناحية النفسية .

وقد زاد الاهتمام بعملية التوازن في العصر الحديث وقد لاح هذا الاهتمام في النظر الى الانسان بشكل شمولي تكاملي فالدراسة الشاملة للانسان لا بد أن تأخذ في

الاعتبار الجوانب النفسية والاجتماعية وتـأثيرات البيئـة وحدود الطموح ودوافعه عند الانسان في كل مجتمع وفي كل فترة زمنية محددة .

فقد كانت النظرات الاحادية للانسان سائدة الى فترة طويلة ، ولكن منذ بداية النصف الثاني لهذا القرن أصبحـت نظرية الدراسة الشاملة هي التي يعتد بها ويعتمد عليها في كل المجالات . فمثلاً كانت مدرسة التحليل النفسي هي المسيطرة على الدراسات التي تتنـاول سلـوك الفـرد في وسطه الاجتماعي ، ولكنها تراجعت بعد أن أخذ بنظريـة التغيير الشامل للسلوك وتنطلق هـذه النظـريـة مـن أن الانسان كائن كيماوي أو هو مصنع كيماوي تتفاعل فيه عشرات المشاعر وتؤثر فيه مئات الدوافع وتترسب في ذهنه ووجدانه آثار الحوادث ، وتترك البيئـة التي يعيش فيها نتوءات بارزة على سطح شخصيته وفي اعماق ذاته .

وقد نشط مؤخراً الاهتمام بالدراسات الحضارية التي تربط التاريخ بالعامل الاجتماعي والتراث والطابع القومي وكذلك تنظر الى الفرد من خلال الصور التي يرسمها في ذاته التراث الذي ينتمي إليه . ولم تعد هناك نظرة أحادية

لفهم الانسان وأن وضعت بعد الدراسات والبحوث بعض العوامل على رأس قائمة المؤتمرات .

ويستخلص الباحثون، من مجمل تلك الدراسات ، ما يسمونه بالطابع القومي لكل أمة ، محددين ردود فعل الأفعال تجاه المواقف والأفكار والحوادث بناءً على أساسيات يضعونها لتلك الشخصية . وهم يقولون إنهم قادرون على توقع بل تحديد ردود فعل كل شخصية تجاه حدث ما بناء على ذلك الطابع القومي .

فمثلاً يقال أن الفرد الايطالي سريع الانفعال تحكمه العاطفة أكثر مما يحكمه العقل ،وهو شخص استهلاكي مزاجي يميل الى التظاهر والاستعراض . ويقولون أن الفرنسي يتأثر بالتاريخ ويقدس المظاهر الثقافية يعيش عمره وكأنه يتحرك أمام مرآة لأنه يهتم كثيراً بتقييم الآخرين له .

ويقولون أيضاً أن المواطن الامريكي انسان برجماتي - أي مصلحي - فهو ينظر الى الأشياء من منظور المصلحة ،فكل ما يحقق له ربحاً فهو الحقيقة في نظره وهو الصواب في نفس الوقت ويعزون ذلك الى المذهب

البيوريتاني الذي حمله الأوروبيون معهم الى امريكا .

والانسان العربي كما يقولون انسان تحركه الحمية سريع الانفعال ولكنه يغفر بسرعة .

وهذه الانماط يصورها الباحثون وأكثرهم من رجال الاعلام الذين يهتمون بقواعد المخاطبة الاعلامية وبعضهم من رجال علم الاجتماع .

وأغلب المؤلفات الحديثة والتي تعالج من رؤية تحليلية التكوين الانساني تعجن التاريخ بالاقتصاد بعلم النفس بالظروف التاريخية وكذلك التراث، وكلها تهدف الى وضع أسس للتوازن في ذات الانسان ومع مجتمعه وكلها تتفق بشكل مباشر أو غير مباشر بأن الشرط الاساسي لتحقيق التوازن للانسان أن يعيش في بيئة اجتماعية سويّة تتلاشى فيها كل مظاهر وأدوات القهر، القهر النفسي والسياسي والاقتصادي فتلك هي القواعد التي يرتكز عليها قانون التوازن عند الانسان .

ومثلما للأفراد مزاجهم الخاص فان للشعوب أيضاً مزاجاً خاصاً بها فلكل شعب أُذن عامة وعين عامة ووعي موجود عام .

فنحن العرب عندما نستمع لمطرب ياباني يغني يخيل لنا أنه عواء قط سجين. ونشعر ونحن في حضرة مطرب هندي أن كاهن يتضرع في حرقة وشجن في حين يكون ذلك المطرب هائماً ولهاً في وصف من يحب.

ومن حين الى آخـر نسمـع عـن مطـربين أوروبيين يقيمون الدنيا من حولهم وتصفق لهم الملايين من جماهير الناس هناك، لكننا في ختام كل اغنية نستمع اليها من اغانيهم نشعر بأننا كنا أمام مشهد طرب مصطنع لا يهزنا ولا يصل الى اعماقنا.

وقد نجد من بيننا مـَن درس وتعمـّق في مـوسيقـى وفنون الشعوب الأخرى، إلا أن تلك المادة الموسيقية تظلّ بالنسبة له مجرد مادة للدراسة ولا يكاد يفرغ من دراسة ما بين يديه حتى ينطلق للاستماع إلى أغنية تراثية تلتصق بذاته وتنساب بقوة ورقة إلى أعماقه وتهز وجدانه وتبعث في نفسه سعادة لا حدود لها.

والفرد الاوروبي عندما يستمع الى موشح عربي لا يثير في ذلك سوى الاسترخاء، ويشعر أن ما يستمع اليـه مجرد ترانيم مبهمة لا تثير في ذاته أو في وجدانه شيئـاً،

ذلك لأن للنفس البشرية بوابات وجدانية خاصة لا تَعْبُرها الا الابداعات المصممة أصلا لعبور تلك البوابات، ولأن هناك ثوابت اجتماعية لدى كل شعب لا تغيرها السنون والتغيرات التي تحدث في كل عصر، ولكنها، أي تلك التغيرات، تهذب تلك الثوابت وتشدها .

والفن يشكل جزءاً أساسياً من شخصية وطابع كل شعب وكما تكون الامم تكون فنونها .

فالشعوب الافريقية تهزها الايقاعات وتنسجم مع طبولها التي تهز اركان الادغال وتتغلغل في نفس الفرد الاغريقي كأنها رعد سحري يرج السماء والأرض، ويمتاز السلم الموسيقي الافريقي بسرعة نقلاته وقوة إيقاعاته، فهو ينبع من البيئة ويطابقها ويماثلها، والافريقي عندما يغني فهو يصرخ ويصيح وذلك انسجاماً مع طبيعته العامة، والافريقي لا يبتسم وانما يقهقه، ولا ينظر ولكنه يبحلق فكل تعبيراته تتصف بالحدة والقوة وهكذا موسيقاه .

وشعوب امريكا اللاتينية التي تتكون من خليط عرقي متعدد ومعقد لها مزاجها الخاص أيضاً ولكنه مثل

تكوينها فهو مزاج معقد ومتنوع، بل ومتقلب. فالموسيقى السائدة في امريكا اللاتينية هي موسيقى المرح والرقص، ويخيل للمرء وهو يشاهد ويستمع الى عرض موسيقي من القارة الامريكية اللاتينية أنه يشاهد مباراة في القفز. فرقصة «السمبا» التي تشد الملايين في أمريكا اللاتينية لا يتحمس لها الآلاف من خارج تلك القارة، فبالنسبة للاوروبيين يعشقون ويفضلون الفنون الفردية وفن «الحلبات» أو الفنان العازف مثل المطرب الذي يغني ويعزف في الوقت ذاته على آلة البيانو أو الاوكرديون أو يرافقه عدد محدود من العازفين في حين تفضل شعوب امريكا اللاتينية الرقص الجماعي. ففي بعض المناسبات تتحول قرى أو مدن بأكملها الى راقصين ومغنين، بأطفالهم وشيوخهم ونساءهم، تعبيراً عن حالة الفرح العام الذي يعيشه المجتمع بأكمله.

وفي بعض المناطق الافريقية تتحول المآتم الى مشاهد رقص جماعي، وتُقرع فيه الطبول وتنطلق فيه الاصوات بالغناء توديعاً للفقيد... بل ان هذه الشعوب تقيم ما يشبه بالصلوات الجماعية في حفلات غناء ورقص حاشدة.

وشعوب جنوب القـارة الافـريقيـة ووسطهـا مـن الهوتنتوث والاشانتي، تقيم احتفالات كبرى في مواسم الجني والحصاد تشبه المهرجانات الضخمة، حيث تنطلق الحناجر بالغناء وتتحول الغابـات والانهار الى مسـارح للفن والفـرح وتكـون تلـك المواسم محافـل لطقـوس يتداخل فيها الدين بالفن والعمل.

وحضارة (الكفير) التي شهدتها القارة الافريقية في القرون التي سبقت حقبة الاستعمار تركت آثاراً هامة تجسد جماعية الفنون في تلـك الحضارة، حيث تتحلـق المجاميـع في مجالس كبيرة وتنحـت الاقنعـة التي تعـد للممارسات الدينية والاجتماعية، وهي بذلك تصنع يدها الجماعية التي تغذي ذوقها العام وتـدخـل عبر بـوابـات مزاجها كي تحقق الانسجام الشامل مع ذاتها.

23 ـ المتنبي ـ دراما ثائرة

الفن، بكل وجوهه وأنماطه، محاولة إنسانية لتحطيم حدود الزمان والمكان بحثاً عن الخلود، وهو تمرد الانسان على قدراته المحدودة. إنه محاولة للتعبير باللغة الكبرى عن طريق فك رموز الصراع في داخل الانسان وفي داخل الوجود. والشعر كان تلك اللغة الكبرى التي عبر بها الشعراء عن تمردهم وكان المعول الذي تسلحوا به في هجومهم على محدودية الزمان والمكان ونسجوا بحروفه تلك الهالة الانسانية المقدسة التي احتوت أزمة الانسان ومحاولة الخروج من ذلك التيه الكبير الذي وجد الانسان نفسه فيه بوجوده في خضم هائل من العلاقات المرتبكة المخيفة.

لقد كانت المسرحيات الشعرية اليونانية تعبِّر عن ذهول الانسان نحو ذلك الصراع الاسطوري بين الآلهة والبشر. وجاء الشعراء والمسرحيون فيما بعد وحاولوا

التعبير عن نفس العقد اضافة الى عقد انسانية حديثة فرضتها طبيعة العلاقات بين البشر بسبب التعقّد الذي طرأ على العلاقات. ولقد كان الشاعر العربي الكبير المتنبي نموذج الشاعر الذي يجسد في سيرته وفي شعره أزمة الصراع في الذات الانسانية وأزمة الوعي نحو الواقع ومحدوديته وقدرة الفرد على التمرد. كان زمن المتنبي زمن الضياع على المستوى الذاتي والمستوى العام، وكان شعره تعبيراً عن ذاته وزمانه. فعلى المستوى الذاتي كان المتنبي شعلة طموح وكتلة تحدي وقوة رفض، وعلى المستوى العام كان العرب مشتتين يهاجم الروم ثغورهم ويحكمهم في بعض الأمصار حكّام غرباء لا يمتون اليهم بصلة، وكانت عقيدة المتنبي التي سيطرت عليه وملكت منه كل شيء هي أنه أهل للجاه والحكم والسيادة، وكان يدين ذلك الزمن وقوانينه الجائرة في نظره التي سدت باب الجاه لديه وفتحته أمام غيره. يقول جبرا ابراهيم جبرا في تشخيص الاطار الزمني للمتنبي في السنوات التسع العجاف التي قضاها المتنبي مع سيف الدولة:

« يكاد ينسجم مع نفسه ومع الدهر مقاتلاً وشاعراً مقترباً من تحقيق بعض حلمه العربي. يتوحّد نفسياً مع

سيف الدولة، يسقط عليه الكثير من شخصيته كما يسقط على نفسه الكثير من شخصية سيف الدولة، وفي هذا التـوحـد يـرى مثلـه الأعلى في اجتماع الامير الفـارس والشاعر في الشخص واحد». ويضيف جبرا... «لقد كان المتنبي بطل دراما مدهشة يخيل إلينا أننا نفهمها اليوم أكثر مما فهمتها العصور السابقة. الدراما هي قصة فعل مأساوي، قصة مجابهة يلعب الأدوار فيها الطموح والغضب والتآمر وشهوة الحكم والقتل مع التأكيد على الجوهر الفذ في الفرد».

لقد كان المتنبي بالفعل أسطـورة كـاملـة تحوي في داخلها تفاصيل مثيرة غنية حية. كان كل شيء بالنسبة له عمل دنى بأسرها فقصـة نسبـه مسرحيـة متكـاملـة لا ينقصها الحدث والذروة وتعج بالأبطال:

1) علاقته بأمه.

2) ادعاؤه النبوة.

3) الأشخاص الذين مدحهم وهجاهـم بعـد ذلـك وحقيقة موقفه.

4) تكوينه الطموح ونفسيته المواجهة المعتدة الفذة .

5) حواره المستمـر مـع نفســه ومـع القـدر ومـع الآخرين .

6) القيم الخاصة به التي صاغها لنفسه وشكلت عالماً باطنياً يعيشه الشاعر ويعيش له .

ونحن نفك رموز قصة المتنبي الطويلة العميقة نقف عند علاقته بأمه ، وكيف يرى أن تلك العلاقة هـي أكبر من علاقة فرد بأمه أو علاقة أم بولدها ، إنها كما يصورهـا وكما يعتنق هو هذا التصوير ملحمة عاتية يتدخل فيها القدر والناس وتصل آثارها الى كل الآخرين ، فبعده عن جدّته لأمه حدث مأساوي انساني ضخـم يحوي مئـات الدلالات ، وحادثة وفـاتها ورثـاؤه لها بتلـك القصيـدة الوجدانية الصوفية التي تعج بالتسليم والتمرد كـل ذلـك يشكل فصولاً من مسرحية هائلة عظيمة .

قال المتنبي في قصيدة التسليم والتمرد يرثي جدته :

ألا لا أُري الاحـــداث حمداً ولا ذمّـــا

فما بطشهـــــا جهلاً ولا كفـــها حلما

أحـــن الى الكـــأس التي شربـــــت بها
وأهـــوى لمثـــــواهـــا التراب ومـا ضمّـا
ولـــو لم تكـــوني بنـــت أكــــرم والد
لكـان أبـاك الضخـم كـــونـك لي أُمّــا
تغـــرَّب لا مستعظماً غير نفســــــه
ولا قــــــابلا إلا لخالقـــــــه حكما

في هذه القصيدة يكتب المتنبي جزءًا من مأساته التي يتصارع فيها الطموح ورزايا الدهـر ويغشـاهـا الفخـر بنفسه في لحظات الالتياع .

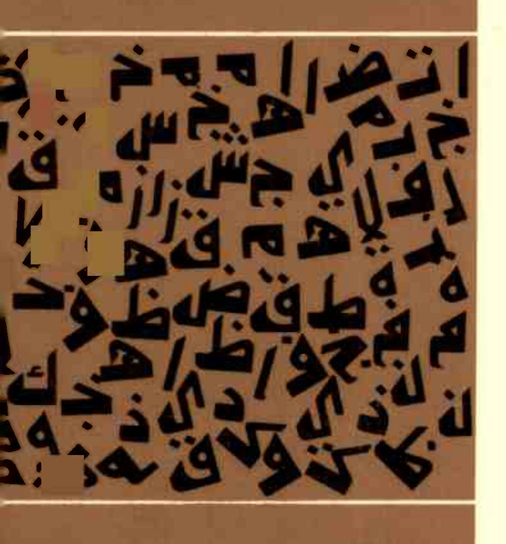
لقد كان المتنبي فصلاً طويلاً في تاريخ الأدب العـربي ، وحوى في شخصيته وشعره صراعاً ذاتياً وقومياً عنيفاً صاغه في حروف ملتهبة بالحياة والطموح وعشق الحرية التي دفع رأسه ثمناً لها . ونهايته أجمل قصيدة كتبها الشاعر ـ فعندما تقابل القول والفعل في لحظة الخطر ـ طابق الشاعر القول والفعل وكان ذلك هو الذروة في مسرحية المتنبي العظيمة .



«الفهرس»

ثمن بيع النسخة للمؤسسات

الرسمية 1000 درهم



الثمن

500 درهم داخل الجماهيرية

